مقولة كشف اللِّثام
عن أحوال دمشق الشام

وهي مقارعة طريفة بين حلب ودمشق

لأديب حلبي من أواخر القرن التاسع عشر

الحاج خورشيد أفندي المسائل

في عام 1984 ، حصلتُ على نسخة مصوّرة من مخطوط طال بحثي عنه ، وكنت قرأتُ عنه مقالاً في مجلة التراث العربي الصادرة عن اتحاد الكتّاب العرب . أما هذه النسخة فكانت في الواقع هدية من صديقي المستشرق الفرنسي ، الإسباني الأصل ، «جان پول پاسكوال» ، ولعلّه - كما يدلّ اسمه - حفيد المؤرّخ القرطبي الشهير ابن بَشْكُوَال ، خلف بن عبد الملك الأندلسي (1101-1183 م) .

وهذا المخطوط هو «مقولة كشف اللّثام في أحوال دمشق الشام» ، التي ألّفها الحاج خُرشد أفندي المسائل الحلبي ، بمدينة حلب عام 1311 هـ = 1893 م ، يضمّ مقارعة أدبية طريفة بين حلب ودمشق ، الأمر الذي كان دوماً مثاراً للمنازعات والمفاضلات ، وحتى الحسد أو البغض أحياناً ؛ فيروي المؤلف أنه زار دمشق في العام المذكور ، وأحبّ أن يطّلع بنفسه على حقيقة ما يبديه الدّمشقيون من «دعاوى طويلة عريضة» في فضائل مدينتهم ، والحجج الواهية الباطلة التي يحاولون فيها اختلاق المثالب في حقّ مدينته حلب ، التي يراها خير مدن الدّنيا قاطبة .

وتعود معرفتي بالنص المذكور ، إلى ما كنتُ قرأته في المجلة المشار إليها ، في العدد 8 من السنة الثانية ، الصادر في شهر تموز عام 1982 .

في العدد المذكور ، نشر الأديب الحمصي الأستاذ عبد الإله نبهان نصّاً للحاج خورشيد نفسه ، مؤلف المقولة ، بعنوان : «مقولة السَّوط المضفور للجاهل المغرور» . وإن كان أخطأ بوضوح عندما جزم بقوله : لمؤلف مجهول ، رغم أن ما جاء على المقولتين يؤكد أنهما لمؤلف واحد ، ما هو إلا الحاج خورشيد المُسائل الحلبي . والعبارة الختامية في مقولة كشف اللثام : «تمّت على يد كاتبه الحاج خرشد المسائل» ، لا تدلّ بوجوه من الوجوه على كونه مجرّد ناسخ للنصّ ، بل هو المؤلف حتماً ، بدليل تطابق تاريخ النسخ (15 ربيع الثاني 1311 هـ) على تاريخ الرّحلة وذكر واقعة حريق الجامع الأموي (في 4 ربيع الثاني من العام ذاته) ، التي وقعت بعد خروجه من دمشق ، كما يقول ، بيوم واحد .

كانت المخطوطتان ملكاً للورّاق الدمشقي الشهير رفيق حمدان ، وقياس مسطّرتهما 14 × 21 سم . وتقع «مقولة كشف اللّثام» في 53 صفحة ، وعلى الصفحة الأولى عبارة تملّك : «ملكه الفقير إليه تعالى محمد ناجي الكردي خادم أموي حلب ، عُفي عنه ، في 27 ربيع الثاني سنة 1311» . ولغتها سقيمة تغلب عليها العاميّة والرّكاكة ، وتفشو بها أغلاط النحو واللغة . أما العبارة الختامية «تمّت على يد كاتبه . .» فخطّها وحبرها مغاير لباقي النسخة ، مما أوقع الأستاذ النبهان في حيرة من أمره ، والمسألة واضحة ، لا لُبس فيها ولا شك .

وأخيراً ، يروي النبهان نبأ عثوره على مخطوط صغير بعنوان : «سانحة أدب من ساحة حلب» لمحرّرها خورشيد أفندي الكردي ، وتمّ نسخه بحمص في عام 1321 هـ . ونجزم بأن هذا ما هو إلا مؤلف المقولتين السالفتي الذكر .

أما مقولة «كشف اللّثام في أحوال دمشق الشام» ، فهي مما يدخل في باب التأريخ الحضاري ، وتضم أراء يغلب عليها التعصّب ضد دمشق لصالح حلب . لكنها ، برغم كل ذلك ، تفيد بتقديم صورة مفيدة وطريفة عن دمشق وأحوالها الاجتماعية وسلوكيات أهلها في أواخر القرن التاسع عشر ، مع ذكر لبعض الحوادث والشؤون التي يندر أن يطالعها القارئ في مواضع أخرى .

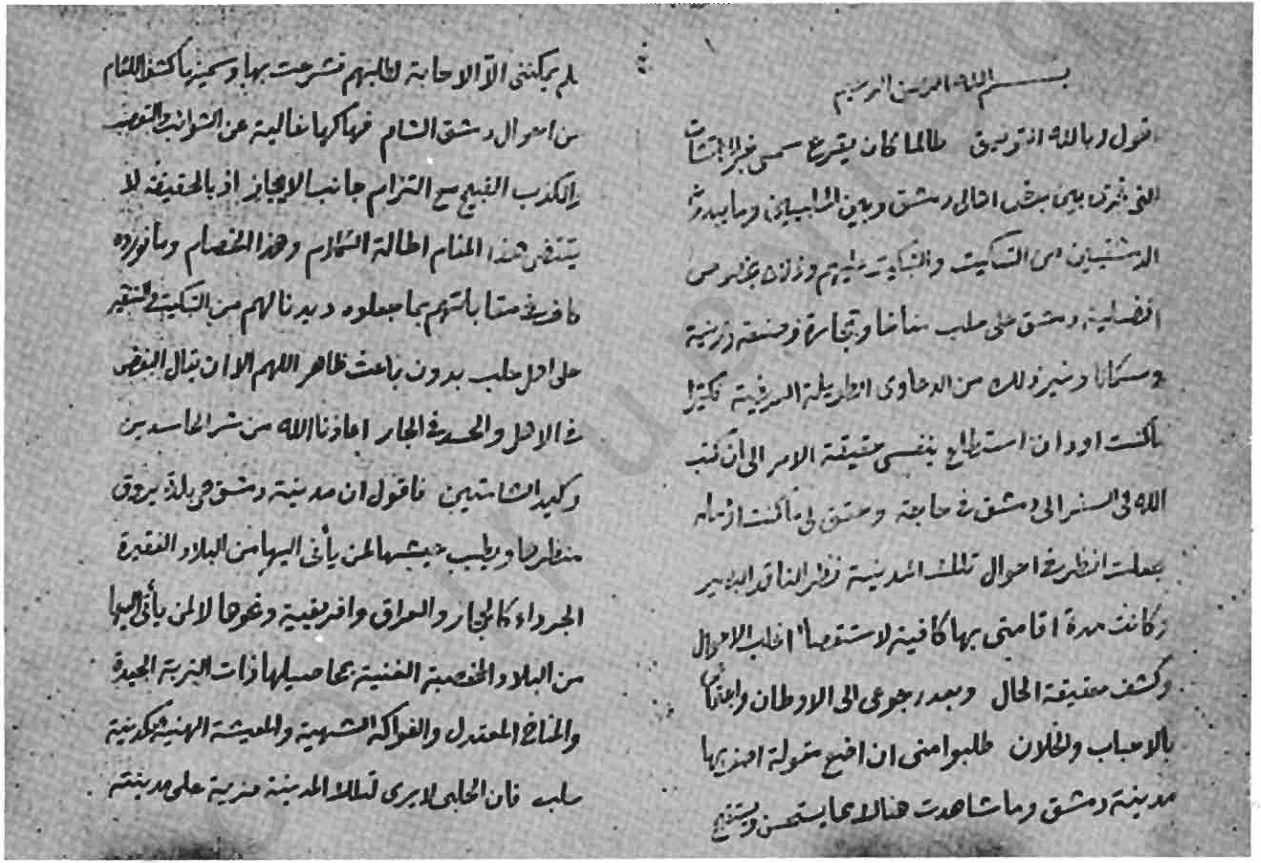

مخطوط «كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام» لخورشيد أفندي ، **راموز مقدّمة الكتاب**

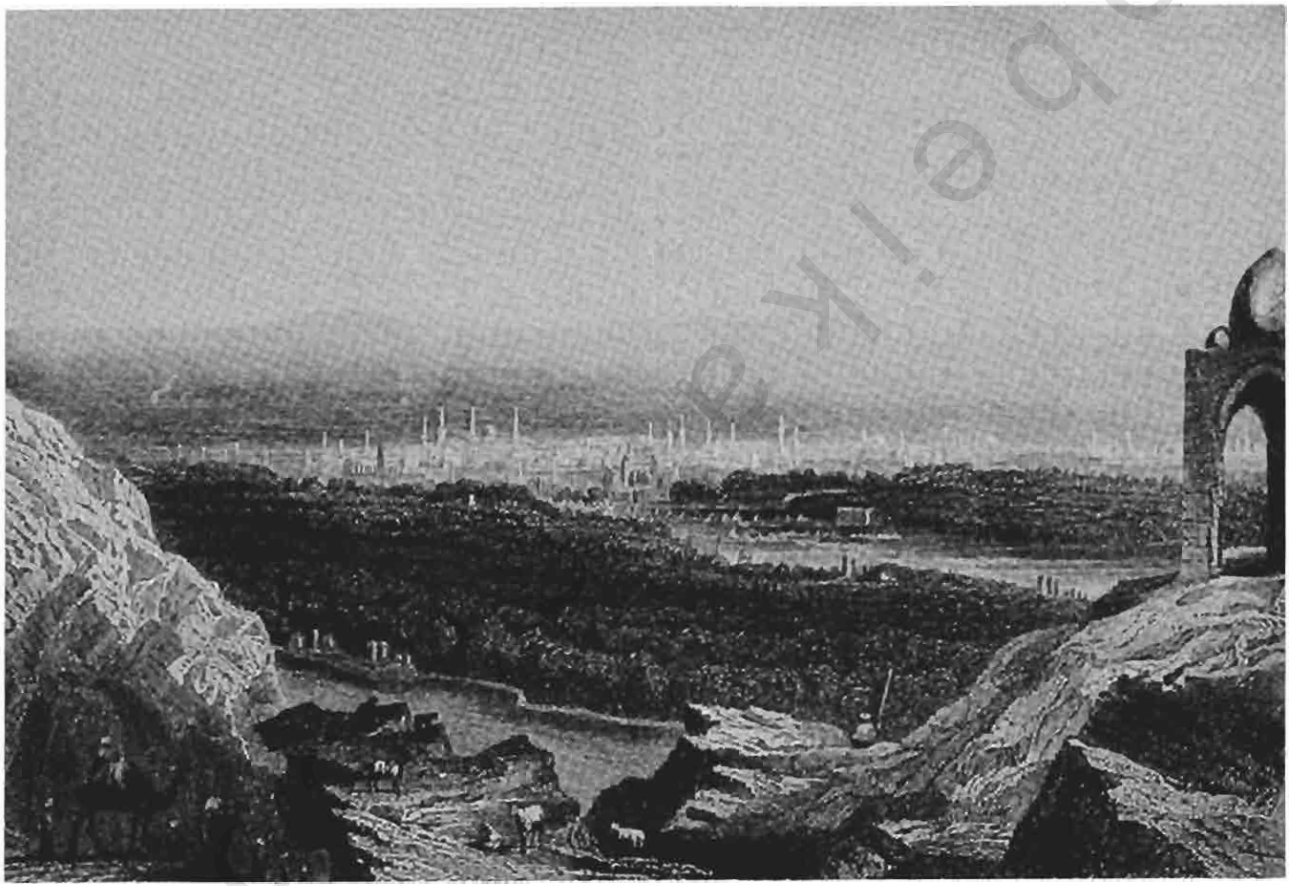

مشهد عام لدمشق من جبل قاسيون بالقرب من قبّة السيّار ، نقيشة تعود للقرن التاسع عشر

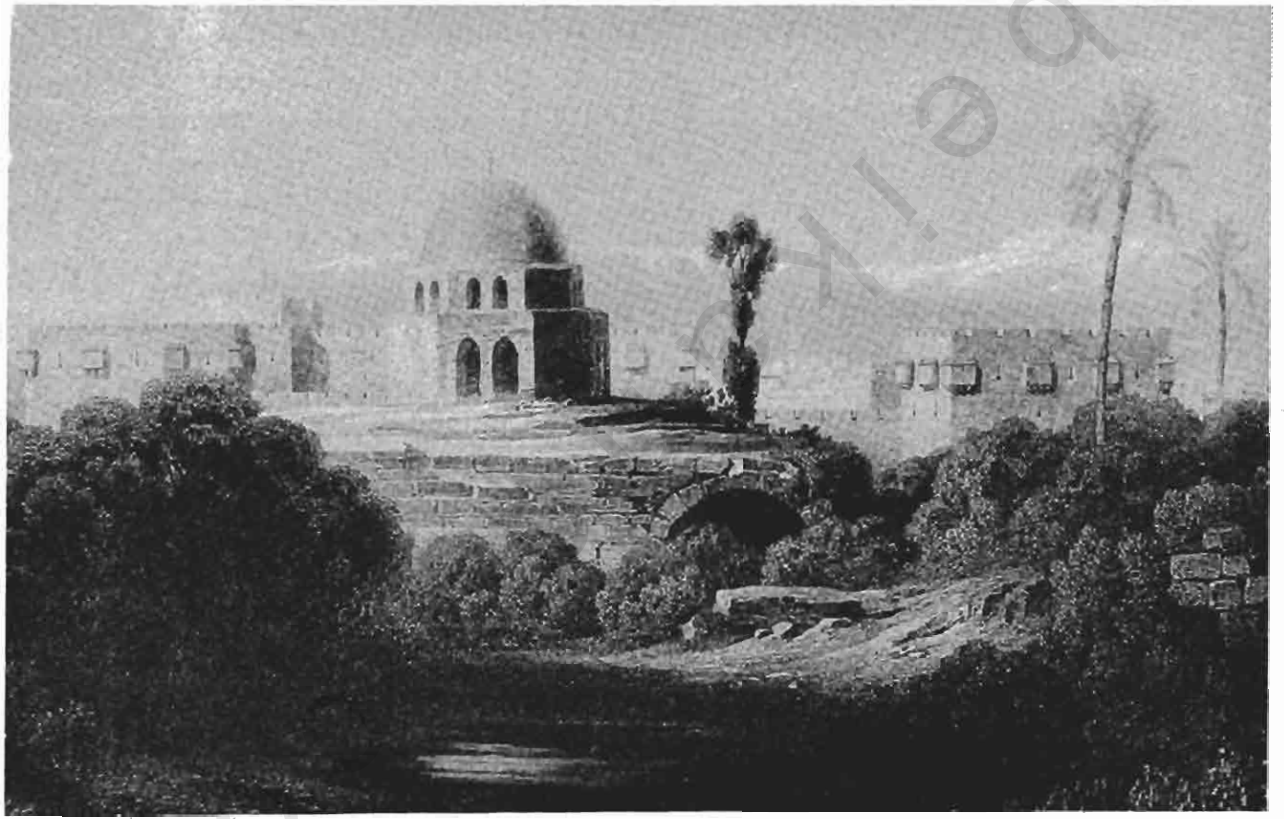

ضريح صلاح الدين وقلعة دمشق ، نقيشة تعود للقرن التاسع عشر

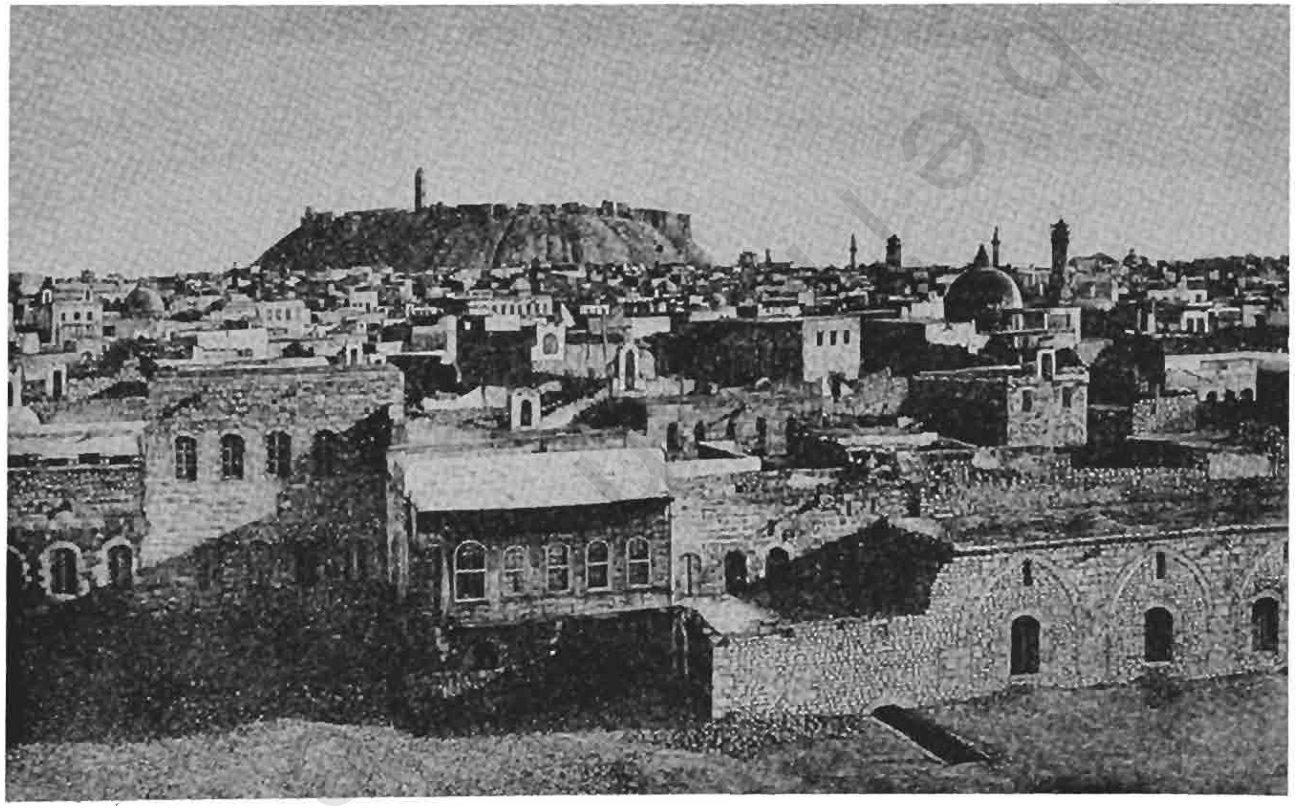

حلب الشّهباء ، نقيشة قديمة من القرن التاسع عشر

[ص 1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أقول وبالله التوفيق : طالما كان يقرع سمعي خبر المناقشات التي تجري بين أهالي دمشق وبين الحلبيين ، وما يبديه الدمشقيون [1] من التنكيت والتبكيت عليهم ، وذلك بخصوص أفضلية دمشق على حلب مناخاً وتجارة وصنعة وزينة وسكاناً ، وغير ذلك من الدّعاوى الطويلة العريضة . فكثيراً ما كنت أودّ أن أستطلع بنفسي حقيقة الأمر ، إلى أن كتب الله لي السفر إلى دمشق في حاجة ، وحقّق لي ما كنت أؤمّله . فجعلت أنظر في أحوال تلك المدينة نظر الناقد البصير ، وكانت مدّة إقامتي بها كافية لاستقصاء أغلب الأحوال وكشف حقيقة الحال .

وبعد رجوعي إلى الأوطان واجتماعي بالأحباب والخلاّن ، طلبوا مني أن أضع مقولة أصف بها مدينة دمشق ، وما شاهدتُ هناك مما يُستحسن ويستقبح . [ص 2] فلم يمكنني إلا الإجابة لطلبهم ، فشرعتُ بها وسمّيتها : «كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام» . فهَاكَهَا ، خالية من الشوائب والتعصّب [2] والكذب القبيح ، مع التزام جانب الإيجاز ، إذ بالحقيقة لا يقتضي هذا المقام إطالة الكلام وهذا الخصام . وما نورده كاف في مقابلتهم بما جعلوه دَيْدَناً لهم من التبكيت والتنقير على أهل حلب دون باعث ظاهر ، اللّهم إلا أن يقال : «البُغض في الأهل والحسد في الجار» [3] . . أعاذنا الله من شرّ الحاسدين وكيد الشامتين .

---

(1) بالأصل : وما يبدونه الدمشقيين .

(2) سيورد الكاتب في مقولته هذه عكس ما يدّعيه هنا .

(3) لا نتوقّع أن أهل الشام يحسدون حلباً ، بل يظنّون أن لدمشق المزيّة في أغلب الأمور . إنما للأمر خلفية تاريخية قديمة جداً ، هي النزاع القبلي بين عشائر القيسية (في حلب مثلاً) واليمانية (في دمشق وحمص مثلاً) ، وكانت بين الفريقين جرت في الماضي مذابح مريعة يطول شرحها . وعين الأمر ينطبق بين حماة وحمص مثلاً . أما الشاميون فهم «يستغلظون» بعض الحلبيين ، بينما نرى أولئك «يستمرقونهم» ! سامح الله الجميع .

استهلال

فأقول : إن مدينة دمشق هي بلدة يروق منظرها ويطيب عيشها لمن يأتي إليها من البلاد الفقيرة الجرداء ، كالحجاز والعراق وأفريقية ونحوها ، لا لمن يأتي إليها من البلاد المخصبة الغنيّة بمحاصيلها [1] ، ذات التربة الجيّدة والمناخ المعتدل والفواكه الشهيّة والمعيشة الهنيّة ، كمدينة حلب .

فإن الحلبي لا يرى لتلك المدينة مزيّة على مدينته [ص 3] في شيء من الأشياء ، إلا أن يقال : تروق لبعض أوباش حلب لأمور ظاهرية لا تخفى على نباهة القارئ الفَطِن [2] ، وذلك لا عبرة فيه .

الهواء

ومعلومٌ أن من أوّل ضروريات المدينة هو الهواء الذي منه حياة الإنسان والحيوان ، فهواء دمشق رديء باتفاق الأطباء ، لكونه على الدوام متحلّلاً للأبخرة والغازات اتي تنجم عن مستنقعاتها الكثيرة ، عندما تكابد مع المواد النباتية التخمّر العفن ، فتدخل هذه الأبخرة والغازات السمّية أجسام الإنسان بالتنفس ، وتفعل به فعل السموم .

وهذا مما لا ريب فيه ، لأن كل بلدة كثرت فيها المياه والمستنقعات كان هذا شأنها ، خصوصاً إذا أضيف لذلك انخفاض المكان وانحجابه عن الأشعة الشمسية كدمشق ، فإن المقبل عليها لا يكاد يرى منها شيئاً حتى يدخلها ، ولذلك ترى غالباً على ألوان أهلها الاصفرار . وقد أشار إلى ذلك الشيخ عمر [بن] الفارض ، رحمه الله ، بقوله : [ص 4]

---

(1) في عصر المؤلف ، لم تكن لتُقارَن بدمشق وجمال طبيعتها ومتنزهاتها مدينة مهما كانت .
(2) لعله يلمّح إلى فشوّ المنكرات والملاهي بدمشق ، كما يدّعي .

جلّقُ جنّةُ مَن تَاهَ وبَاهَا ورُباها مُنيتي ولا وَبَاها
قِيل لي صِفْ بَرَدَا كوثرها قلتُ غال بَرَدَاها بِرَدَا[!]ها

وحلب في ذلك على العكس ، فهي جيدة الهواء لعدم وجود المستنقعات ، مرتفعة الموقع ، ولذلك ترى أهلها سليمي البنية صحيحي المزاج . فلو لم يكن فيها سوى مزيّة جودة الهواء لكفى في تفضيلها على دمشق ، ولذلك قال الشيخ سعد الدين أبو سعيد محمد بن الشيخ محيي الدين [بن] العربي :

حلبٌ تفوقُ بمائها وهوائها وبنائها والحُسنُ في أبنائها
نورُ الغزالة [1] دون نور جمالها والشُّهبُ تَقْصُر عن مدى شهبائها
ظلّتْ يحومُ النصرُ من أبراجها فبُروجها تحكي بُروجَ سَمائها
والسُّورُ باطنُه ففيه رحمةٌ وعذابُ ظاهره [2] على أعدائها
بلدٌ يظلُّ به الغريبُ كأنّه في أهله فاسمعْ جميلَ ثنائها

الماء

وأما ماء دمشق فرديء أيضاً ، لكن لا لكونه رديئاً من أصله ، [ص 5] بل لما جرى عندهم من العادة الرذيلة ، وهي إلقاء الزّبل فيه لسدّ مسامات كيزان الأقنية . فلا يخفى ما يحمله الماء من هذه المادة القذرة ، وتهديه إلى الأهالي شُرباً واغتسالاً . وهذا الذي حمل الشيخ عبد الغني النابلسي ، رحمه الله تعالى ، أن يقول [3] :

---

(1) الغزالة : الشمس .
(2) اقتباس أدبي من القرآن الكريم : ﴿فضُرب بينهم بسور له بابٌ ، باطنُهُ فيه الرّحمَة وظاهرُهُ من قبله العذاب﴾ – الحديد : 57 .
(3) القصيدة مشهورة له في ذمّ أهل دمشق ، وكانوا رموه بالزندقة إبّان خلوته الصُّوفية ببيته .

أتْعَبَتْنـــي أبقـــرُ الشّـــام وهـــي في نقـــض وإبـــرام

وَاعَنـــائي كـــم أعلّمهـــم ثـــم ألقـــى جهلهـــم نـــامي

زبلُهـــم في المـــاء صـــيّرهم شـــربه مـــن غـــير أفهـــام

لـــم يرقـــوا بـــالمواعظ إذ مـــا هـــم مـــن حجـــر هـــام

كلّهـــم لا يعرفـــون ســـوى قبـــح أفعـــال وآثـــام

بطنهـــم والفـــرج أهلكهـــم مثـــل ثـــيران وأنعـــام

فـــتراهم لا عقـــول لهـــم إنمـــا هـــم أســـرُ أوهـــام

عصبـــة البُهتـــان ضلّـــوا ولـــم يختشـــوا زلاّت أقـــدام

فيّ قـــد زادت وساوســـهم وابتلـــوا في داء برســـام

فلـــذا هـــم يخلطـــون بنـــا فـــرط تحقـــير بـــإكرام

وإلـــه الحـــقّ مطّلـــع بـــأموري خـــير عـــلاّم

قـــادر في الحـــال يـــأخذهم بـــي علـــى قهـــر وإرغـــام

مـــا أنـــا مـــن جنســـهم وبنـــو آدم هـــم مثـــل أصنـــام

فكـأني بينهـم وأنـا الـ[ص 6] العربـي مـن نسـل أعجـام

وأنـــا مـــن خبـــث عصبتهـــم بـــين عـــذّال ولـــوّام

مولـــدي فيهـــم ولا عجـــب جوهـــر في صـــدف كـــامي

لســـت منهـــم لانفرادي في الـــ بيـــت عنهـــم منـــذ أعـــوام

قســـوة فيهـــم وفـــرط جفـــا لـــم يخـــف مرثيهـــم رامـــي

وابتلـــوا بـــالبغي مـــن حســـد مثـــل أمـــراض وأســـقام

قـــد أتـــى في مُســـند ابـــن عـــدي خـــبر عـــن جُـــلّ أقـــوام

قـــال خـــير الخلـــق ســـيّدنا : الجفـــا والبغـــي في الشـــام

وهذه العادة ، ولله الحمد ، مفقودة في حلب ، فإنهم يسوقون الماء في أقنيتها بواسطة نشارة الخشب الطاهرة النقيّة . فترى الماء عندهم كالزّلال ، خصوصاً في الصهاريج المعدّة لتبريد الماء مدّة الصيف ، فهي من أطيب المياه وأطهرها وأعذبها . ولا يخفى أن الماء أخو الهواء في شدّة احتياج الإنسان إليه .

المسكن

ثم من ضروريات الإنسان المسكن ، ولمّا كان جميع بيوت دمشق مشحوناً بالبقّ والبعوض والنمل والدّود وغير ذلك من الهوام ، كانت مصيبة عظيمة على الساكنين . وكنتُ أظن قبلاً أن اصفرار أغلب أهل دمشق [ص 7] ناشىء من فعل هوائها الرّطب العفن ، ولكن تبيّن لي بعد التأمّل أن فعل الهوام المذكورة له دخل في ذلك أيضاً ، إذ لا يمكن للإنسان هناك أن يعتاض في النهار [عمّا] يخسره من دمه في الليل ، ولو أراد الإنسان أن ينام خارج البيوت تخلّصاً من هذا الأذى ألجأته رداءة الهواء ووخامته إلى داخل البيوت قسراً . فكأنّ بين الهواء والهوام اتفاقاً على استنزاف وإفساد دم أهل الشام .

البناء

وأما بناؤها ، فحيث أنه كان من الطوب والتراب ، ما خلا البنايات الأميرية والقُشَل العسكرية وبيوت الأوروبّاوية ، وبعض بيوت أغنيائها ، كان منظرها يقبض النفوس ، خصوصاً بشاعة منظر ستائرها المعمولة من عيدان القنّب والطين . وينشأ عن جميع ذلك في الصيف غبارٌ يعمي الأبصار ، وفي الشتاء وُحُولٌ تذهب بالاصطبار . وأقسم بالله أن منظر قرية بِنِّش وكثير من قرى حلب ، يروق للعين أكثر من منظر دمشق .

وأما ما يقال عن داخل [ص 8] بيوتها من كونه مزوّقاً ومزخرفاً بنقوش جميلة ، فهذا شيء لا يهمّ الغريب .

الأسواق

وإن كانت أسواقها عريضة عالية السقوف ، فهي خالية من الترتيب ، حيث ترى الخبّاز بجانب البزّاز ، والجزّار بجانب العطّار ، والحبّال بجانب البقّال ، والدخّاني بجانب الحلواني ، والقوّاف بجانب الصحّاف ، وهلمّ جرّا . ولا يخفى عى الفَطن ما يجده المشتري في ذلك من العناء ، عمّا لو كانت أمكنة الباعة مترتّبة كل صنَف بصنفه ، خصوصاً للغريب ، لأنه ربما يقضي أكثر نهاره في التفتيش على مطلوبه . ولذا كانت حلب في ذلك فائقة على دمشق أيضاً ، لأن الترتيب في المبيعات [فيها] من الأمور الملتزمة جداً .

وصف حلب لابن جُبير

قال ابن جُبير في مدح حلب ، بعد كلام كثير ، اكتفينا منه بما يأتي [1] :

حلب [بلدةٌ] قدرها خطير ، وذكرها في كل مكان يطير ، خطّابها من الملوك كثير .

كانت في القديم ربوةً فيما يقال ، كان يأوي إليها ابراهيم الخليل عليه السلام [ص 9] بغَنَمه ، فيحلبها هناك ويتصدّق بلبنها ، [فلذلك سمّيت حلب ، والله أعلم] . وبها مشهدٌ كريم منسوب إليه ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه .

---

(1) قابلنا ما ورد على نص رحلة ابن جُبير ، مطبعة السّعادة بمصر 1908 ، ص 230-233 . ولو كان مؤلفنا راجع ما كتبه ابن جُبير عن دمشق ، لَوجد ما يشوقه ويمتعه أيضاً .

ولها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبيه والنظير بين القلاع ، تنزّهت حصانةً أن تُرام أو تُستطاع ، قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسُبحان من أحكم تدبيرها وتقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها .

ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع [1] ، أن الماء بها نابع وقد صُنع عليه جُبّان [2] ، والطَعام يصبر فيها الدهر كلّه ، وليس من شروط الحصانة [3] أهم من هاتين الخلّتين .

ويطوف بجبلها سوران حصينان ، يعترض دونهما خندقٌ بالماء فلا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه . وسورها الأعلى مجلّل ، كله أبراج منتظمة فيها العَلالي المُنيفة [4] قد تفتّحت كلّها طيقاناً ، وكل [ص 10] بُرج منها مسكون .

والبلد ضخم جداً ، جميل ترتيب الأسواق .

المفاخرة بحلب

وكان سيف الدولة ، رحمه الله تعالى ، يفتخر بحلب ويقول : «حلبٌ معقلي ، وشاعري المتنبّي» .

وكان جميل باشا ، رحمه الله تعالى ، يقول : «لو كانت عربستان مملكة مستقلة ، لوجب أن تكون عاصمتها مدينة حلب» . وكثيراً ما سعى في أن يجعلها مركز أوردى [5] في مدّة ولايته عليها ، فما توفّق في ذلك .

---

(1) بالأصل : ومن جمالها الزائد على المُشترَط لحصانة القلع . صوّبناه من نص الرّحلة .
(2) بالأصل : صُنع عليها جفان .
(3) بالأصل : الحصان .
(4) بالأصل : القلاع المنيعة .
(5) اوردى : كلمة تركية ordu ، معناها : جيش .

البُقول والزروع والفواكه

وأما بُقُولها - يعني دمشق - فهي أدنى من بُقول حلب في اللّذة والفكاهة ، وأغلى قيمة منها . وقد ذكر ذلك ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) ، فقال :

وشاهدتُ من حلب وأعمالها ما استدللتُ به على أن الله تعالى خصّها بالبركة وفضّلها على جميع البلاد ، فمن ذلك أنه يُزرع في أراضيها القطن والسُّمْسُم والبطيخ والخيار والدّخن والكرم والذُّرة والمشمش والتّين [والرُّمّان] والتفاح [والفستق والزيتون] [1] ، عذياً لا يُسقى إلا بماء المطر ، ويجيء مع ذلك رَخْصاً [2] غضّاً رويّاً [ص 11] يفوق ما يسقى بالمياه والسّيح في جميع البلاد . وهذا لم أره فيما طُفتُ من البلاد في غير أرضها .

وهي تفوق البلاد بأشياء ، كما قال الشاعر :

حلبٌ سَمَتْ ببُقولها وبمائها ... وببُرّها وبسَمْنها ولُحومها
والتين والبطّيخ والعَسَل الشهي ... والفُستق القرشي وجَنيِ كُرومها
وبما يُصاغ من الحليب وزيتها ... تلك التي انفردتْ بطيبِ طُعومها

وقد قيل للشّهاب السَّهْرَوَرْدي [3] : «أخرج من حلب فإنّك مقتولٌ !» ، فقال : «حتى آكلَ من بطّيخها» . . فكان شهيد البطّيخ !

ولقد نُقل البطّيخ منها في زمن السلطان الأشرف بَرْسْبَاي إلى مصر ، والآن يُنقل منها إلى دار السّعادة برسم سيدنا أمير المؤمنين [4] .

---

(1) ما بين حاصرتين ليس في معجم البلدان ، بل زاده المؤلف من عنده .
(2) رَخْص : طري .
(3) المتصوّف المشهور ، أعدمه صاحب حلب الظاهر غازي ابن صلاح الدين عام 587 هـ .
(4) دار السعادة أي استانبول ، وكانت تُدعى «در سعادت» ، أما أمير المؤمنين فعبد الحميد !

وكذا يُقال في فواكه حلب سوى بعض الأنواع ، فإنها في دمشق أجود من التي في حلب ، كالمشمش الحموي والتفّاح والمّثرى والدّرّاقن . على أنه لو كان عندهم أكثر من ذلك بكثير ، لفاقت عليهم حلب بالفُسْتُق الجميل اللون اللذيذ الطعم ، الذي يقال عنه (نُقل الملوك) ، وهو [ص 12] كذلك .

اللحم والخبز

وأُلحق بالفستق اللّحم واللّبن وما يتألف منه ، والخُبز أيضاً ، ففي دمشق اللّحم ليس زكي الطعم والرائحة ، لأن مرعى الغنم عندهم من قُمامات البساتين ، مثل البيقية وورق اللّفت والحلبة ، ولذلك كان طعم اللّحم والحليب عندهم تافهاً .

وسبب كراهيّة طعم الخبز أيضاً الطواحين ، فإنه لّما كان ماء أنهرهم قوياً ، يشتدّ دوران أحجار [1] الرّحى على القمح فيجعل حرارة قوية في الطحين ، فيكون سبباً في فساد طعم الخبز . وأيضاً يخلطون الطحين بالذّرة الصّفرة لأجل تحسين لون الخبز ، بخلاف الخبز في حلب ، فإن أكثر طحينه يطحن في المدار على الدواب بلطافة ، من غير ما يصير حرارة في الطحين . حتى طواحين الماء فيها خالية من الخاصيّة المذكورة ، ولا جرت العادة بأن يخلطوا الطحين شيئاً ، لأن قمح حلب لا يلزمه شيء يحسّنه ، ولذلك اشتهر بأن خبزها أطيب خبز في الدنيا .

حارة المرقص

ومن أقبح العادات في دمشق [ص 13] وجود حارة المَرْقَص ، وهي سكنى المومسات ، واقعة داخل المدينة ، فإنها تحوي من هؤلاء الفاحشات على مئات ،

---

(1) بالأصل : حجار .

فهنّ كشجر العلّيق في طريق الناس ، إذ يعلقن بكل مارّ . فالحمد لله على خلوّ حلب من هذا المُنكر [1] .

والظاهر أن هذا داء قديم فيها ، لأن العلاّمة مجد الدين الشيرازي ذكر ذلك بقوله : (قال الشاعر)

تجنّبْ دمشقَ ولذّاتها ... وإن غرّك الجامعُ الجامعُ
فسُوقُ الفُسوق بها قائمٌ ... وفَجْرُ الفُجور بها ساطعُ

منقول من كتاب «تحفة الأصحاب» ، الموجود في مكتبة الملك الظاهر بدمشق .

الطيش والجهل

وأما من جهة خُلُقهم ، فإن أكثرهم أهل خفّة وطيش ، ومن جملة الأدلّة على خفّتهم وطيشهم عملهم العراضات في أيام توصيل الأنفار الذين أصابت أسماءهم القُرْعَة العسكريّة إلى سراية المُشير .

وذلك أن دائرة العسكريّة تطلب أنفار كل قُوْل ، في يوم مخصوص على حدة [ص 14] حسب مرغوبهم . وقد جَرَتْ العادة عندهم أن تجتمع شبّان ذلك القُوْل ، ويأتيها المَدَد من محلاّت أخرى ، فيصيرون جيشاً عرمرماً حاملين السيوف والتّراس [2] وبعضهم النَّبابيت وآخرين البنادق ، ويمشون جمهوراً من غير ترتيب ، وفي وسطهم الأنفار العسكريّة . ويأخذون باللعب بهذه الأسلحة وإطلاق البنادق والفُرود في أثناء مشيهم ، وفي مقدّمتهم الطبل .

---

(1) فأين ذهب حي بَحْسيتا الشهير إذاً ؟ وليت المؤلف ما فتح هذه السّيرة ، وأحرجنا بنشرها في هذه الصحائف . غير أن قدم النص يمنعنا من حذفها ، فلذا نتركها على كُره .
(2) كذا بالأصل ، وصوابها : الأتراس .

وربما يشخّصون هيئة عنتر وعبلة ، فتصير الخيل والجمال والرّجال والنّساء والأولاد كَبْكَبة تمتدّ نحواً من ألف ذراع . ويدخلون بهذه الهيئة في أسواق المدينة ، لأنه لا بدّ من كونهم يمرّون من جانب جامع الأموي ليقروا الفاتحة لسيّدنا يحيى عليه السّلام ، فتُسمع لهم جلبة تصمّ الآذان ، من نحو قعقعة السّلاح وصوت إطلاق البارود [1] وحِدى الفرسان وضرب الطبل ورُغاء الجمال وصهيل الخيل .

فيا لها من ساعة مَهُولة ، يتخيّل للغريب الجاهل عاداتهم أنها معركة دمويّة . وكثير من أهل الأسواق يغلقون دكاكينهم ، خوفاً من النّهب والخطف ومن نار البنادق أو الدّخان المنعقد والغبار .

ولا يزالون على هذه الحال حتى يصلوا إلى سراية المُشير ، وهناك لا بدّ وأن يُظهروا شيئاً من براعتهم بلعب السيوف والنّبابيت أمام الهيئة العسكرية أيضاً ، ثم يسلّمون الأنفار المذكورين ويرجعون إلى أماكنهم .

فكم من ولد تدوسه الدّواب ، وكم من رجل يصاب بجراح بسيوف اللاعبين ، أو لطم نبّوت أو نار البارود ، وكم من امرأة تُخدش أو تُنخس أو تُقرص أو تُضغط .

ويستغرقون في هذه العراضة نحواً من خمس ساعات تقريباً ، وعندما يصلون إلى أماكنهم والغبار والدّخان يعلو ثيابهم ووجوههم ، ينظرون في أعطافهم مختالين ، كأنهم قافلين من جهاد العدوّ وقد فازوا بالنصر المُبين .

وفي ثاني يوم يكون دور قُوْل [2] [ص 16] آخر على هذا النمط ، وهلُمّ جرّاً حتى نهاية الطلب . ولكن بعد أيام تنعكس القضيّة وهو يوم تسفير الأنفار ، فهناك عراضات البكاء والنّواح من كل جانب ، لأن جميع نساء المدينة اللواتي لهنّ أولاد مسافرون ، تشترك في هذه العراضة ، وكذا رجالهم .

---

(1) بالأصل : البارودي .
(2) القُول : كلمة تركية kul ، معناها : عسكر .

وقد قلتُ لبعضهم : «لو أنكم جمعتم ما تصرفونه على هذه العراضات من النفقات ، ووزّعتم ذلك على المحتاجين من هؤلاء الأنفار ، لكانوا استعانوا بذلك على غربتهم ، وهان عليهم بعض مصابهم . .» .

أجابوا : «هذه عادتنا من القديم لا يمكن تغييرها !» .

وكذلك يفعلون في توصيل العريس ليلاً إلى بيته .

فأين هذه الخفّة من سكينة أهل حلب ؟! فإن الأنفار المطلوبين للعسكريّة يذهبون بجملتهم دفعة واحدة في يوم الطلب إلى سراية الحكومة بغاية الأدب ، فإذا كمل اجتمعهم تأتي الموزيكا العسكرية وتمشي قدّامهم وهي تعزف ، حتى يصلوا سويّة إلى القشلة الهُمايونيّة [1] ، وقد انقضى الأمر . فحيّا الله الأدب [ص 17] وأهله .

مدح حلب

ومن هنا قال أبو العلاء المعرّي يمدح حلب :

يا شاكي النُّوَبِ انهضْ طالباً حَلَبا ... نهوضَ مضنىً لحسم الدّاء ملتمس

واخلع حذاءَك إن حاذيتها ورعاً ... كفعل موسى كليم الله في القُدس

وقال أيضاً :

حلبٌ للولي جنّةُ عَدْنٍ ... وهي للغادرينَ نارُ سَعيرِ

والعظيمُ العظيمُ يكبر في عينيه ... منه قدر الصغير الصغيرِ

فقُويقُ في أنفس القوم بحرٌ ... وحصاةٌ منه نظيرُ ثبيرِ

---

(1) القشلة : كلمة تركية kışla ، معناها : ثكنة عسكرية . أما الهُمَايونية فتعني السلطانية ، والكلمة تركية ذات أصل فارسي .

موازنة بين المدينتين

ويمكنك أن تعمل موازنةً بين أهل المدينتين ، من كلام صاحب قصيدة الفراسة ، وهي قصيدة طويلة يترجم بها ناظمها غالب البلاد الشهيرة . فمن قوله في حلب :

وحلبٌ خزانةُ الذكاء ... وموطن العفّة والحياء
طالعُها للغُرَبا سعيدُ ... وهي لمن فيها شفا أكيدُ
لكنها تُعطي دقيقَ العِلمِ ... لأهلها من بعد لطف الفهمِ
لكنها نتيجةُ التلاحي ... وموطنُ المراء والكباحي
والعصبيّاتُ لديهم وافرة ... ومسحةُ الحِذق عليهم ظاهرة

[ص 18] وفي دمشق يقول :

عند دمشقَ منظرٌ أنيقُ ... يعرفُهُ العدوّ والصّديقُ
وفي بَنيها منظرٌ عجيبٌ ... وخُلُقٌ نتاجُه غريبُ
لهم ودادٌ حَسَنٌ وبِرُّ ... لكنّه عن ظاهر يغرُّ
وفيهُمو شَكاسةُ الأخلاقِ ... وغِلْظةٌ تنبو عن الشِّقاقِ
ودادُهم إمّا شهدْتَ وافي ... فإن تَغِبْ فالودُّ فيهم خافي
وفيهُمو نجابةٌ وباسُ ... لكنّها ليس لها إيناسُ
وفيهُمو غلاظةٌ وحِدّة ... وفيهُمو على الغريبِ شِدّة

منقول من كتاب «كنوز الذهب» لأبي ذرّ المحدّث ، ومجهول الشاعر صاحب القصيدة .

عودٌ على مدح حلب

وقد مدح حلب جماعة من الملوك والوزراء والعلماء والشعراء ، فمن ذلك قول الملك الناصر ابن الملك الأشرف :

سَقى حلبَ الشّهباءَ في كلِّ أزمة ... سحابةَ غَيث نوؤها ليس يقلعُ
فتلك دياري لا العقيقُ ولا الغَضَا ... وتلكَ رُبوعي لا الزّرودُ ولَعلعُ

وقال أبو فراس الحَمداني [1] :

وأبيتُ مُرتهنَ الفؤاد بمنـ ... ـبج السَّوداء لا بالرَّقّة البيضاء
الشّامُ لا بلدُ الجزيرة لذّتي ... وقُويقُ [2] لا ماءُ الفُرات مُنائي

وقال الصّلاح الصَّفدي متشوّقاً إلى حلب ، وهو مقيم بدمشق :

مَنْ مُبلغٌ حَلَبَ السَّلامَ مُضاعفاً ... من مُغرم في ذلك أعظم حاجة
أضحى مقيماً في دمشقَ يرى بها ... عَذْبَ الشَّراب من الأسى كأجاجة

وقال . . . . . :

قُلْ لمن رامَ النَّوى عن بلدة ... ضاقَ فيها رزقُهُ من حَرَج
علِّل القلبَ بسُكنى حلبٍ ... إنَّ في الشَّهباء بابُ الفَرَج

وقال الشيخ عمر بن الوردي ، رحمه الله تعالى [3] :

---

(1) من مهموزته التي مطلعها : أقناعةً من بعد طُول جفاء ... بدنوّ طيف من حبيبٍ ناء .
(2) بالأصل في القصيدة : «يزيد» ، أحد أنهار دمشق المعروفة ، فكيف تراه صار قويقاً ؟
(3) في قوله توريات في منتهى اللّطافة ، عن حلب وجبل الجوشن والفردوس وباب الجنان .

عليكَ بصهوة الشَّهباء تلقى … بجَوْشَنها غاربةَ الزَّمان
فللعرفان في الفردوس ريحٌ … يفوحُ شَذَاهُ من باب الجنان

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن عفيف التّلمساني :

أقولُ والبارقُ العُلويُّ مبتسمٌ … والرّيحُ مُقبلةٌ والغيثُ مُنسكبُ
إذا سقى حلبَ من مُزن غادية … أرضاً فخُصَّتْ بأوفى قطره حلبُ
أرضٌ متى قُلتُ مَنْ سُكّان أربُعها … أجابك : الأشرفان الجودُ والحَسَبُ
قومٌ إذا زُرتَهُم أصفوكَ ودَّهُمُ … كأنّما لكَ أمٌّ منهمُ وأبُ [1]

قول للقنصل دارفيو في حلب

وفي كتاب «نهر الذهب» للغزّي عن دارفيو [2] ، وهو قنصل لدولة فرنسا بحلب ، كان في حدود سنة 1191 [هـ] [3] ، قال في كتاب ألفه وسمّاه بـ «تذكرة أسفاري» [4] ذكر فيه بنداً طويلة من الحوادث والأحوال المتعلقة بالبلاد التي دخلها في سفره ، ومن جملتها حلب ، فإنه كتب فيها زهاء عشرين ورقة ضمّنها بعض أوصاف قلعتها وبناياتها وهوائها ومائها وأهلها ، اقتطفنا منه هذه الأسطر :

---

(1) وهذا والله يصحّ ولقد جرّبناه ، والله يحيّي حلب وأهلها ، ويعطّر منهم بالعافية الأردان .
(2) هو الرّحالة الفرنسي الشهير الفارس لوران دارڤيو ، أحد رحّالي القرن السابع عشر ، أمضى في الشرق 52 سنة (1635–1687 م) ، وتعاطى التجارة وأعمال قنصلية بلاده .
(3) هذا غلط ، فدارڤيو كان قنصلاً لفرنسا بحلب بين 1679–1686 م = 1090–1097 هـ .
(4) عنوان مذكراته ما ترجمته بالعربية : «مذكرات الفارس دارڤيو» ، وعنوانها بالفرنسية :
Mémoires du Chevalier d'Arvieux, Envoyé Extraordinaire du Roi à la Porte, Consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, & autres Echelles du Levant. (6 vols.)
وكنا في عام 1982 نشرنا من مذكراته «وصف دمشق في القرن السابع عشر» (1660 م) . وكذلك ترجمنا منه وصفه المطوّل لحلب التي أقام بها 7 سنوات ، وسننشره في حينه .

قال : إن الأمر الخارق للعادة هو امتياز الحلبيين وسموّهم على باقي شعوب الممالك العثمانية كلّها ، فإنهم أحسنهم طباعاً وأقلّهم شرّاً وألينهم جانباً وأشدّهم تمسّكاً بمكارم الأخلاق من جميع شعوب هذا الملك العظيم .

لابن مطروح في حلب ودمشق

وقد ذكر المدينتين الصاحب جمال الدين بن مَطْرُوح ، فقال في حلب :

على حلبَ الغرّاء منّي تحيّة ... لها أرَجٌ كالمسك والعنبر الوردي
وما هي إلا جنّة الخُلد بهجةً ... ولا عجب شوقي إلى جنّة الخلد
[21]نعم ورعى الرّحمنُ فيها عصابةً ... مناقبهم جلّتْ عن الحصر والعدّ

وفي دمشق يخاطب أهلها :

اتّخذتُمُ السّبتَ عيداً ... وهذه سنّة اليهود
وكان يكفيكم ضلالاً ... شُربُكم الماء من يزيد

بعض مثالب حلب

ولكن ولو مدحها المادحون ووصفها الواصفون بما هي خليقة به ، لا يمكن أن نغضّ الطَّرْف عن بعض عادات سيئة يستعملها بعض الأوباش الجهلاء ، منها خروج النساء خلف الجنازة رافعات أصواتهن بالبكاء والعويل والصّراخ والولاويل ، مما تشمئزّ منه النفوس فضلاً عن كونها من المحرّمات وملعونٌ فاعلها ؛ وقد أدرك النّصارى واليهود فظاعتها وسماجتها ، فسبقوا الإسلام إلى تركها .

ومنها منادمة العجائز مع «القْشير» [1] في ليالي بعض التعاليل بمحضر من المخدرات قاعدات عى الأسطحة ، وفي أرض الدار مئين من الرجال ، فهناك تسمع للجميع قهقهة عالية لما يقع بين العجائز والقشير من الكلام الفاحش ، وقد يكون مكشوف العَوْرة . ولا يخلو من أن يكون لبعض النساء الموجودات [ص 22] أقارب من الرجال الحاضرين . فيا لها من فظاعة لمن يُدركها ، ولكن القوم يظنون أن العادات تبيح المنكرات .

* * * * *

ومنها توصيل التهنئة إلى بيت صاحب الوليمة بالعراضة والطبل ، وربما كانت شاة أو خمسة أرطال من الأرز أو مثلها أرزاً وسكراً .

ومنها جمع الدراهم من الحاضرين في التعليلة إسعافاً لصاحب الفرح ، فمن الناس من يعطي في يد «الخَلْبُوص» قرشين أو ثلاث أو أكثر أو أقل ، ولكن يقسمها دفعات ، وفي كل دفعة يمدحه الخلبوص بارعاً في المدح ، يستدرّ الدراهم من الحمقى الذين يرتاحون لذلك البلاغة .

* * * * *

ومنها إذا عمل أحدهم وليمة لسبب ما ، دعا إلى بيته أزود مما تسع سفرته من الناس ، ثم يكلّف إلى الطعام نفراً بعد نفر ، فيحصل للعقلاء من السابقين بعض اشمئزاز ، لأنه يرى أن عيون المتأخرين ترمقه لأنهم يعلمون أنه لا نصيب لهم من الطعام إلا نفايته ، ويحصل [ص 23] للعارفين من المسبوقين انكسار قلب لأنه يتحقق إنما تأخيره كان لانحطاط مقامه عن غيره . فما كان أغناه هذا الأحمق من أن يدعو الناس إلى طعامه ، ويكدّر أناساً منهم ويحتقر أناساً .

---

(1) القشير هو مهرّج التعليلة ، كان يصبغ وجهه بالألوان ويلبس طرطوراً طويلاً ويشير بعصا في يده . راجع موسوعة حلب المقارنة للعلاّمة الأسدي ، 6 : 204 .

ولكن لو عملتَ موازنة بينه وبين من يدعو مقدار مائتين من الناس إلى ليلة آخر دوره ، فتمتلىء داره بجميع مساكنها ، وقد يتفق أن يبقى أناس زائدة فيوزعهم على بيوت جيرانه . وربما كانت ليلة ماطرة ذات برق ورعد لأنه لا يكون ذلك إلا في فصل الشتاء ، فتصوّر مقدار المشقّة التي تحصل لصاحب الوليمة وأولاده وأهله وجيرانه في إيصال القهوة والأراكيل لهؤلاء المدعوين . وإذا كان عنده مغنيين أو نوبة فيلزم يدوّرهم على الجميع . وأعظم من الجميع تقديم الطعام المحلى نصف الليل ، فيدعو إلى السُّفرة زُمرة بعد زُمرة ، وربما ناس من المدعوّين لا يراهم صاحب الوليمة . . فإذا انقضت تلك الليلة وكلٌّ راح إلى حال سبيله ، وجدتَ الأماكن التي كانوا جالسين فيها كأنها مراغة جمال [ص 24] من الدَّوس بالنعال ورماد التنباك وقشور النّقل ، ووقوع مصباح الغاز على المخدّات وانقلاب كانون النار على البساط والتبوّل في أطراف الدار ، وهلمّ جرّا . . فلا شك أنه يهون عليك فعل الأول .

* * * * *

ولتعلم أن جميع هذه العادات آخذة بالنقصان ، بتقدّم المعارف والعلوم والآداب ، ومأمول زوالها بالكليّة قريباً إنشاء الله .

عَوْد على مدح حلب

ولنرجع إلى ما كنّا في صدده من مدح حلب ، فلو أردنا أن نسرد جميع ما قيل فيها نظماً ونثراً من الشعراء والأدباء لطال الشرح ، ويكفي أن أكثر خلفاء الأمويين كانوا يختارون سكنى حلب على دار ملكهم ، فكان مُقام هشام في الرُّصافة شرقي حلب ، وعمر بن عبد العزيز في الخناصرة ، وسليمان بن عبد الملك في قنّسرين ، والوليد في جبل سمعان .

قضيّة الكوميدة

ويكفي هذا القدر في وصف حلب ، ولنرجع إلى وصف دمشق وأهلها فنقول :

يوجد عندهم تساهل في أمر النّاموس ، فمن جملة تساهلهم تشكيل الكُوميدة [1] التي شكّلها [ص 25] أبو خليل القبّاني عندهم ، فإنها كانت مؤلفة من غلمان جميلين يرقصون ليلاً على نغمات الأوتار أمام الجمهور من الرجال والأولاد ، وبعض الغلمان المذكورين يتزيّون بزيّ النساء ويحكونهن بحركاتهم وكلامهم . حتى تمادى الأمر إلى دخول بعض أولاد أكابر دمشق في زُمرة الراقصين ، ولمّا لم يكن لآبائهم قدرة على منعهم لعدم النصير عليهم ، وكاد يتفاقم امر ويكثر الفساد ، هيّجت الحميّة الدينية الشيخ سعيد الغبرة فتوجّه إلى الأستانة العليّة ، وبعد مجاهدة كلّية استحصل على إرادة سنيّة بتعطيل الكوميدة المذكورة من دمشق مؤبّداً ، فاكتسب بذلك رضاء الله تعالى ورضاء الناس من أهل الناموس ، ولكن تحمّل غضب أبي خليل المذكور وحزبه .

وبعد ذلك حضر أبو خليل إلى حلب ، وطمع في أن يشكّل بها نظيرها ، ولكن رجع منها صفر اليدين بخفّي حنين بعد جهد عظيم ، فالحمد لله على عدم رواج هكذا منكرات في حلب .

خَلق أهل دمشق

وأما من جهة خَلق أهل دمشق ، فيوجد منهم نحو الخمسة [ص 26] في المئة في لون الحَبَش ، فكأن كثيراً منهم مولع بتطعيم الباذنجان بالقرع ! ومثل هذا العدد منهم مخلوعين ومحدوبين ومعتوهين ، ويُظنّ أن سبب ذلك ناشىء من كون كثير

---

(1) الكوميدة : من الإيطالية comedia ، وكانت تسمّى بالشام أيضاً الكوميضة أو القوميضة . أما أبو خليل فهو أحمد بن محمد آغا آق بيق القباني (1841–1902) ، وهو جد جدّتي .

منهم معرّضين للمرض اللّينفاوي الذي يتسبب عنه رخاوة العظام ، وهو من مقتضيات هوائهم الرّطب ، أو لكون والديهم يتزوّجون غالباً وهم دون سنّ البلوغ .

ومن المعلوم أن الأولاد الذين يأتون باكورة ثمرة والديهم يكونون مختلّي المزاج وعُرضة للعاهات ، أو لكون أمهاتهم يبكّرن إلى المتنزّهات والفُرَج ويتركن أولادهن في القماط ، فينقلب الولد في رباطه فلا بدّ أن ينعوج شيء من أعضائه ، أو من مجموع ذلك ، والله أعلم .

ويوجد بينهم كثير من الذين شفتهم العليا لا تغطي أسنانهم فتبقى بارزة ، والسبب في ذلك على ما أظن أن أمهاتهم يتوحّمن على جمل المَحْمَل ، فإنهن مولعات بالفرجة عليه [ص 27] ذهاباً وإياباً .

ويكثر فيهم السّمان أو المنفوخون ، حتى أن البعض منهم يكون بقدر كردوشين (كردوش لقب رجل حلبي جسيم) ، وهذا ناشيء من بلادة طبعهم وبرودة دمهم .

وجميعهم أهل خرافات ووساوس [1] .

الحُسن بين دمشق وحلب

وأما من جهة الحُسن فهو فيهم قليل جداً ، رجالاً ونساءً ، إسلاماً ونصارى ويهوداً ، ولا يصْدُق كل ما يقال عنهم في هذا المعنى . وقول الشيخ عبد الغني رحمه الله [2] :

ما بين جابيها وباب بَريدها قمرٌ يغيبُ وألفُ بدرٍ يطلعُ

(1) يتحدّث صاحبنا عن الخرافات ، وقبل قليل كان يحكي عن الوحام على جمل المحمل !
(2) ليس الشعر للنابلسي ، إنما هو من قصيدة مشهورة مطلعها : عرّج ركابك عن دمشق . .

فإن كان قوله هذا تصوّفاً فـ[ـلا] ندري معناه ، وإن كان تغزّلاً فهو من المبالغات الشعرية ، إذ لا يوجد جانب منه في كل دمشق ، فضلاً عن هذا المقدار في قسم منها . وأيضاً لو كل واحد من الألف غاب وظهر عوضه ألف ، لأشبه في التكاثر «مكروب» الكوليرة [1] ، وكانت ضاقت بهم دمشق بل وبرّ الشام في مدّة قليلة !

* * * * *

والمُحكم قول صفيّ الدين الحلّي [2] ، رحمه الله :

لله درُّ سَمَا الشّهباء من فَلَكٍ ... فكلّما غاب نجمٌ أطلعتْ قَمَرا

[ص 28] وما أحلى قوله ، وكان قد جاء إلى حلب ومعه غلام ، فأخذه منه بعض أمرائها :

سقى حلباً صوب العهاد وإن وَهَتْ ... مواثيقُ من سكّانها وعهودُ
وحيّا على أعلى العقيقة منزلاً ... عيونُ ظباهُ للأسود تصيدُ
إذا ما انتضتْ فيه اللّحاظُ سُيوفَها ... فإن قلوبَ العاشقينَ غُمودُ
وَرَدْنا بها بيضَ الصِّفاح كليلةً ... فصاتْ علينا أعينٌ وقُدودُ
فللّه عيشٌ بالحبيب قضيتُه ... فُويقَ قُويقٍ والزّمانُ حميدُ

* * * * *

(1) لا ندري بماذا نجيب . . ألم يعلم المؤلف بعد أن الشعر يقوم على المبالغات البيانية ؟ أم هل بوسعنا مثلاً أن نعاتب أبا فراس الحمداني لأنه في قصيدته المشهورة يناجي حمامة ؟
(2) لم نرَ أي مجال للمقارنة بين البيتين ، ولا شك أن الأول ألطف وأبلغ .

تفضيل جمال أهل حلب

وخلاصة القول أنه لا مناسبة بين جمال أهل حلب ودمشق ، فإن الأولى مشهورة بحُسن صُوَر أهلها ، وقد ذكر ذلك الدكتور فانديك [1] الأميريكاني في كتابه «المرآة الوضيّة» [2] حيث قال : وأهل حلب يتّصفون غالباً بحُسن الصورة والصوت والخطّ ، فإن ذلك عندهم أكثر مما عند غيرهم من أهل برّ الشام .

ومن النّكت الظريفة في محاسن أهل حلب هذه العبارة التي تُقرأ [ص 29] طرداً وعكساً ، وهي : «حلب أهلها بَلَح» .

مفاخرة أهل دمشق

وجميع أهل دمشق يحبّون الفخفخة والتفاخر والمُباهاة ، ولو بالمُحال ، كافتخارهم بضخامة أشجار زيتون بلدهم ، مع أن زيوتهم لا تصلح إلا لعمل الصابون أو الإيقاد ، لأنك إذا أحميته لتقلي به شيئاً هزمك برائحته المنتنة ، وهذا شأن الزيت الذي ينمو شجره سقياً . وهم يدهنون به الزبيب فيصير له طعم كريه ، وهو المسمّى عندهم بالزبيب الدّربْلي . والمترفهون منهم يأكلون من زيت بلاد حلب [3] .

---

(1) كورنيليوس ڤان دايك Cornelius Van Dyck (1818–1895 م) : طبيب وعالم مستشرق أميركي من أصل هولندي . أقام في بيروت مبشّراً بروتستانتياً ، وأتقن العربية وآدابها . شارك في تأسيس الكلية الإنجيلية السورية (S.P.C.) منذ عام 1866 م (وهي الجامعة الأميركية في بيروت اليوم A.U.B.) ، ودرّس فيها فكان من ألمع مستشرقي عصره . ترجم الكتاب المقدّس إلى العربية ، وله نحو 25 مؤلفاً بالعربية في العلوم والآداب . ترجمته في الأعلام لخير الدين الزّركلي ، الطبعة الثانية ، 6 : 77–78 . وراجع :
Dodge, Bayard: *The American University of Beirut, A Brief History*, p. 7.

(2) أي كتابه «المرآة الوضيّة في الكرة الأرضيّة» في الجغرافية ، ووصف حلب فيه يقع بين الصحائف 144–146 ، الطبعة الثالثة ، بيروت 1886 .

(3) لا زالت إلى اليوم أجود زيوت سورية ما تنتجه عفرين وسلقين وإدلب ، من ديرة حلب .

وكافتخارهم بجسامة بقرهم ومعزهم ، لأنها تعطي الحليب الكثير . نعم صدقوا ، ولكن ما أدراك ما طعم الحليب الذي يفتخرون به ؟ ما هو إلا طعم عصير السَّداب ، إذ ليس عندهم مرعى للدواب غير الحلبة وورق الكرنب كما تقدّم .

* * * * *

ويفتخرون أيضاً بعنب داريّا ، وهو في الحقيقة من العنب الزيني الذي عندنا ، والفرق بينهما كون الذي عندنا عدياً وذاك سقي ، ومع ذلك فهو غال ، لأن رطلهم الذي هو عبارة عن ثمانمائة [ص 30] درهم يُباع عندهم بثلاثة قروشٍ .

* * * * *

وأما افتخارهم بأنهارهم التي تشق المدينة فهي قذرة لكثرة ما يسقط فيها من أوخام المدينة ، فحيث ما جلستَ بجانب نهر في بيت قهوة أو روضة تشمّ منها رائحة كريهة ، إلا الأنهر المعدّة للشرب ، مثل قنوات وبانياس وتورا ويزيد ، فإنها لا يخالطها شيء سوى الزّبل لأجل سدّ مسام كيزان الأقنية . وهذا معفو عنه عندهم ، ولكن لا عافا الله زمرة قنواتيهم لأن عندهم من نشارة الخشبية أكثر مما في حلب ، فما ضرّهم لو استعملوا ذلك الطاهر بدلاً من هذا النجس ؟ إلا أن يقال إن القنواتية هناك من النّصارى فلا يبالون بالنجاسة [1] ، والإسلام على آثارهم سالكون ، وبأعمالهم مقتدون .

* * * * *

(1) هذه دعوى مرفوضة ، فمفهوم النجاسة كمصطلح ديني ينبغي ألا يختلط بمعاني السلوك الحياتي للنظافة . فجميع أهل الشام وسورية من مسيحيين ومسلمين يدركون أساليب النظافة والعناية الصحية ، إلا أن ما يُعتبر نجساً لدى المسلمين كالخمر ولحم الخنزير ، ليس يعتبر كذلك لدى المسيحيين ، وكذلك فأحكام الطهارة والوضوء تختلف جذرياً .

الخضار والحلويات والمآكل
بدمشق

وأظنّ سبب غلاء أسعار البُقول عندهم هو اعتناؤهم بالأشجار أكثر من البُقول ، وذلك ناشىء من جهلهم بفنّ الزراعة ، بخلاف البساتنة في حلب ، فإن أحدهم يستخرج بمهارته [ص 31] من مسكبة واحدة ما لا يستخرجه البستاني عندهم من مسكبتين ، وهذا أمر محقّق .

وأما الحلويات عندهم ، مثل البقلاوا والمعمول والغُرَيْبة والمأمونيّة وما أشبه ذلك ، فلا تقربها أبداً ، لأنه لا صناعة ولا بضاعة . لكنهم يتقنون عمل الفول المدمّس والمسبّحة ، وهم يتفنّنون كثيراً في تركيبهما ، فمرّة يعملونهما بالسَّمن – وما أدراك ما السَّمن – ومرّة بالزيت المعلوم ، ومرّة باللّبن ، ومرّة بالطحينة . ولكل من هذه التراكيب اسم خاص به ، مع أن الخسيس خسيس ولو تنوّعت تراكيبه وكثرت أسماؤه .

وأمّا ماء الحمّص الممزوج بالقلي فلا بدّ لأحدهم أن يمرّ صباحاً على أحد باعته ويكرع منه مغرفة ، وهو عندهم بمثابة الشّاي عندنا .

وكما يفضّلون طبخ البندورة الخضراء على الحمراء ، كذلك يفضّلون الكرنب على كثير من الخضر .

الصابون والفحم

وصابونهم أسود اللّون أو سنجابي رديء لا يقوم بوظيفة تنظيف الثياب كما يجب ، فربما تحتاج لأجل غسل قميص ولباس إلى قالب منه برأسه . ولذلك [ص 32] تراهم يرغبون الصابون الذي يأتيهم من إدلب ، لأنه أجود من صابونهم بكثير ، مع أنه أردى صابون بلاد حلب .

ولمّا كانت جبالهم خالية من شجر السّنديان ، احتاجوا أن يتّخذوا الفحم من شجر المَحْلَب والبُطْم والحُور ، ولذلك ترى فحمهم عسر الاشتعال سريع الانطفاء ، وهذا الذي دعاهم لعمل أقراص من الفحم للنارجيلة لا تطفى .

التربة والمراعي

وقصّابوهم لهم ولع بتقليد قصّابي حلب في عمل الكَبَاب [1] ، ولكن هيهات ، فإنه كما قال أبو العلاء المعرّي :

هذه ماؤها فأين هواها ؟ . . . . . .

فإن قلتَ : ولمَ ذلك ، والغنم التي تُذبح في دمشق تُجلب أكثرها من حلب ؟ قلتُ : نعم تُجلب الغنم ، ولكن لا تجلب مرعاها معها ، وأنت خبير بأن طعم الشيء يتبع المرعى . فإنا نرى عسل سَرْمين يفرق في الطعم عن عسل إدلب والمسافة بينهما ساعة ، وما ذلك إلا من خواص المرعى .

ومن تأمّل في [الـ]أزهار التي تُزرع في بيوت دمشق على تراب أسود كيف تكون قليلة العطرية ، [ص 33] علم السبب في الفرق بينها وبين ما يُزرع منها في حلب على [الـ]تراب الأحمر المركّب من كلسات الحديد الذي هو من خصوصيات حلب ، ولذا كان جميع ما ينبت في أراضي حلب أزكى ريحاً وطعماً مما ينبت في غيرها . ولقد صدق من قال : «لله خواصٌ في امكنة والأزمنة والأشخاص» .

* * * * *

(1) أما هذه فعلى العين والرّاس . . صدق المؤلف وأوفى ، ولا يتمارينّ أحد حول هذه المسألة أبداً ، فلحلب طاعت فنون الطبخ ، وبخاصة اللّحوم . أما الكباب فاختصاص حلبي محض . وحتى عندما تذوق في أحد مطاعم دمشق كباباً متميّزاً ، فما عليك إلا أن تسأل أحد الكراسين : شو الشيف عندكم منين ؟ سيقول لك بفخر : والله من حلب !

قضيّة الموزيكا

ومما يقضي بالعجب قضيّة «الموزيكا» . وملخّص المسألة هو أنه في العام الماضي سافرت من حلب إلى دمشق الموزيكا العسكرية التي رئيسها سليمان آغا القُول آغاسي ، بعد ما أقام في حلب زُهاء عشرين سنة . ويوجد في دمشق موزيكتان أخريتان .

وفي كل يوم بعد العصر تحضر واحدة منهما إلى سراية المشير وتعزف ، ويجتمع كثير من الأهالي للاستماع . ففي اليوم الذي تكون فيه نوبة الموزيكا الحلبية ترى الناس تهرع لسماعها ، وتراهم يخبرون بعضهم بقولهم : «اليوم دور الحلبيّة !» ، وفي باقي الأيام لا ازدحام .

وإذا اتّفق لإحدى الموزيكتين أن قلّدت الحلبيين بلحن [ص 34] استرقته منها تسمع الناس يقولون : «شتّان ما بينهما !» . وأقسم بالله لو أن أحداً أخبرني بذلك لشككتُ في قوله ، إذ من المعلوم أن الآلات الموزيكيّة العسكرية جميعها سواء ، والأنغام عندهم مربوطة بعلم النّوطة ، فمن أين حصل هذا الفرق بين الفريقين ؟ وهذا ما رأيته بعيني وسمعته بأذني .

وأرجع أقول : قد أثبت المؤرخون الحذق لأهل حلب في فن الأنغام والألحان من القديم ، والشاهد على ذلك وجود موزيكتين أهليتين ، الواحدة للإسلام والأخرى للنصارى ، فهم يعزفون بهما في الولائم والأفراح بغاية الإتقان على أصول النوطة ، وهذا مما انفردت به حلب عن غيرها من البلاد . فلعلّه يوجد في أنغامهم بعض نبرات وتراجيع مما يسمى في اصطلاح أهل الصّنعة «خرداوات» ، لا يضبطها علم النوطة ، كما عسر على الخطوط الإفرنجيّة ضبط حروف الحلق التي في اللّغة العربية .

ولمّا كان سليمان آغا [ص 35] المذكور تقّن كثيراً من الأغاني العربية عن مطربي حلب ، فلا عجب إذاً فاق غيره من أهل هذه الصّنعة .

ومن جملة طباع الدمشقيين المفطورين عليها محبّتهم التبكيت على لهجة أهل حلب ، مع أن لهجتهم من أقبح اللّهجات لأنها شبيهة بلهجة الجبيليّة [1] . وإذا سمعتهم يتكلّمون تخال أن فكّهم السّفلي مرتخي الأعصاب أو مختلّ تركيبه الطبيعي ، فينطقون «القاف» ألفاً ، و«الجيم» ژاياً [2] مُعجمة أو جيماً كردياً ، و«الشين» سيناً [3] في بعض الأحوال . .

وقد كنتُ في مجلس منهم ، فأرادوا أن يُخجلوني ، كما هي عادتهم مع كل غريب ، فقلت لهم : قبل كل شيء ، اقرأوا لنا قوله تعالى : ﴿والشّمسُ وضُحاها﴾ ، ثم ﴿قُل أعوذُ بربّ الفَلَق﴾ . . فقرؤوهما من غير أن يغيّروا شيئاً من الحروف عن مخارجها .

فقلت لهم : يظهر لي أن جميع أهل دمشق متصنّعون يحبّون التخنّث ، لأنهم يغيّرون مخارج الحروف عمداً ، تشبّهاً بالأحداث . فهَبْ أن الغلمان أو البنات إذا قال أحدهم :

«ؤمتْ أبْل [ص 36] السَّمس ، لئيتْ أمي رايحة إلى المَرْءَصْ [4] لحئتها لئيتها مسطّحة بمشنّيت رژّال غريب . . ؤلت لها : أومي . . أبي يريدك . آلتْ : يضربْ أبوك ، خلّينا نشمّ الهَوا يُوْه ، أخْيَر ما إنزل على المحكمة واطلّئو ، وَاشوف لي زوز غيره . ولَحشتْ لي أمَري [5] ، أخدتو وژيت» . .

---

(1) كلمة حق : لهجة حلب لا مُشاحّة في ثقلها ، أما رخاوة حنك الشوام فصواب لا نُماريه !
(2) الحرف (ژ) من الدّخيل على الأبجديّة العثمانية القديمة ، يُلفظ جيماً مرقّقة ، ويقابله بالفرنسية الحرف (J) ، كقولك : janvier . وفي الإنكليزية يُعبّر عنه بالحرفين ZH . والواقع أنه هكذا تُلفظ الجيم بدمشق ، وهذا ليس من العربية في شيء .
(3) لكن هذا في النادر ، كقولهم : سجرة (شجرة) ، سمس (شمس) ، سخص (شخص) .
(4) تقدّم ذكر هذا المرقص ، ولكن يعيب المؤلف أن يتحدّث بهذه الرّقاعة .
(5) القَمَري عملة فضّية قديمة ، ذكرها المعلّم نعّوم البخّاش الحلبي في يومياته الثمينة . انظر : الأدب الشعبي الحلبي ، للأب يوسف قوشاقجي ، ص 117 .

. . ربّما يُستعذب منهم سماع تلك الألفاظ ، ولكن من يطيق أن يسمعها من أهل الذقون مثلكم أو من عجائز النساء ؟ وما تنقمون [1] منا إلا أننا لا نغيّر مخارج الحروف في التكلّم مثلكم ، بل لغتنا على لغة القرآن !

فخرسوا عن الجواب ، وكأنهم أُلقموا حجراً ، وأخذوا بالضّحك وحوّلوا الحديث إلى غير موضوع .

تراب من على رأس من ؟

وأردتُ مرّة أن أغضب واحداً منهم غليظ الطبع ، فقلتُ له : لا يليق بكم أن تحطّطوا من قَدْر حلب ، وترابها على رؤوسكم !

فقال : بل تراب دمشق على رؤوس أهل حلب !

فقلت له : هذه دعوى كاذبة ، وأما قولي فصحيح .

فقال : وما وجه صحّة قولك ؟

فقلت : ألستم تشترون الترابة الحلبيّة (البيلون) وتغسلون بها رؤوسكم في الحمّام ، رجالاً ونساءً ؟

فحمله الحُمق على أن يقول : عليّ الطَّلاء [2] عمري [ص 37] ما فكّيت عليها مصر [3] . ولعلّه كاذب [4] .

* * * * *

---

(1) بالأصل : وما تنقموا .
(2) يريد : الطلاق .
(3) العبارة مُبهمة ، ولعله يريد : مصرية ، أي : لم أصرف عليها قرشاً ، ولا استعملتُها بحياتي أصلاً .
(4) بالأصل : كاذباً .

ويوجد في دمشق سبعة محاكم شرعيّة ، وأغلب القضايا التي تُرى بهذه المحاكم دعاوى الطلاق ، فلا تكاد محكمة منها تخلو يومياً من أمر الطلاق . فلو رأيتَ ما يجري بين المطلّقين والمطلّقات لهالك الأمر جداً ، إذ لا ترى من مئة دعوى عشرين حقّة ، والباقي تزوير وبُهتان ، وشهود الزُّور لدى الباب قاعدون .

ومن جُملة ما رأيته في المحكمة السّنانية ، هو أن رجلاً كان غائباً في الحجاز ، ولمّا حضر وجد زوجته متزوّجة بغيره . . فحضر إلى المحكمة وبثّ دعواه ، فأحضرها المُباشر إلى مواجهة النائب وسألها عن مُدّعى [1] زوجها ، فادّعتْ أنه طلّقها قبل سفره إلى الحجاز ، وأثبتت دعواها بشاهدين وكسبت الدعوى . فخرج الرجل يتعثّر في أذياله خجلاً ، وخرجتْ متهلّلة الوجه ، فالتفتتْ إلى زوجها ، وقالت له : «طءّ في ألْبَك . . تزوّزتْ تزوّزتْ !» [2] . .

فلعلّ أحداً يعترض علي ويقول : من أين عرفت أن الرجل كان المُحقّ والمرأة المُبطلة ، وأنت رجل [ص 38] غريب هناك ؟ أقول : حسب ما أخبراني من لهم اطّلاع على حقيقة الأمر .

* * * * *

وأعجب من ذلك أنه كثيراً ما يدّعي رجل في المحكمة على أناس خطب منهم بنتاً بكراً ، رآها بعينه وجرى العقد والنكاح ، وعند الاختلاء أدخلوه على عجوزة شَوْهاء . وهنا تكون [3] حيرة الحاكم ، لأنه نظراً لوقوع هكذا مواد يُعتقد صحتها ، ولكن معلوم أن الشريعة الغرّاء لا تُبيح للحاكم أن يحكم برأيه ، ولا

---

(1) بالأصل : مدعا .
(2) يعني : «طقّ بقلبك . . تزوّجتُ تزوّجتُ» .
(3) بالأصل : يكون .

يمكن للمدّعي أن يقيم شهوداً على مدّعاه . وغاية الحكم أن يطلب الحاكم من المدّعى عليهم اليمين . . (انخلي يا هلالة) . . [1]، وبذلك تنختم المحاكمة . وهذا الأمر يقع كثيراً مع الغرباء الذين يجهلون حيل المحتالين ومكرهم ، الذين جعلوا ذلك مهنتهم وسبب معاشهم .

* * * * *

وربّما يزوّجون المرأة الواحدة عشر مرّات في السنة ، لأنهم لا يعرفون عدّة ولا مدّة ، وقلّما يُرى في دمشق رجل لم يتزوّج بعدّة نساء ، كما أنه لا يُرى امرأة لم تُطلّق من عدّة رجال . فإن كثيراً [ص 39] من سماسرة النساء دأبهم التحليل والتركيب ، فإن معيشتهم متوقفة على ذلك . فكلّما يرون غريباً يدورون حوله ويشوّقون له في التزوّج ، فإن كان يرغب أن يتزوّج بكراً فالمهر ألف قرش ، فإن لم يكن موجوداً معه جميع المبلغ يقولون له : يكفي أن تدفع الآن مائتي قرش ، واكتب بالباقي سنداً على نفسك ، ولك أن نُريك العروس بعينيك ، لأن الشريعة الغرّاء تُبيح ذلك ! ولكن يعلم الله كيف تنقلب العروس الجميلة بعد الرؤيا .

ونتيجة هذا الزواج تكون في الغالب خسارة الدّراهم التي دفعها من المهر ، فيقنع الغريب من الغنيمة بالإياب ، وهم يقنعون بما قبضوه تاركين السّند كرماً وسماحاً ، لأن الغرباء كثيرون ، فيزوّجونها بعد أيام قلائل لشقيّ آخر ، وهلمّ جرّا . .

* * * * *

(1) «انخلي يا هلالة» : مثل شعبي متداول ، قصّته أن بدوياً سرق كيساً من الطحين ، فلما جيء به إلى القاضي وأنكر دعوى السرقة ، طلب منه أداء اليمين ، فانفرجت أساريره وقال في نفسه : انخلي يا هلالة ! وهلالة هي زوجته ، أي صار بوسعها الآن أن تنخل الطحين مطمئنة البال ، فالأمر يسير إذ توقف على حلف اليمين .

السكّة الحديدية

ومما دلّني على خمول أفكار غالبهم ، هو أني أقمت ثلاثة أشهر في مدينتهم ولم أسمع من أحد منهم ذكر قضيّة السّكة الحديدية ، التي رخّصت الدولة العليّة لشركة فرنساوية [ص 40] بمدّها من دمشق إلى حلب إلى براجيك ، مع أن ذلك من الأمور المهمّة ، تجارة وسياسة ، التي تهمّ كل محبّ لوطنه راغب في عمرانه . ولو سألتَ أحداً منهم عن ذلك لاستغرب منك هذا السؤال . حتى أن السّكة التي مُدّت من دمشق إلى حوران تمرّ على طول المدينة بجانب جدرانها ، فلا ترى أحداً منهم يهتم لرؤيتها غير الذين بيوتهم بجانب السّكة ينظرون إليها بدون قصد .

تعصّب الدمشقيين ضد حلب

ومن جملة جهل عوامهم قولهم إن سيّدنا يحيى أفضل من سيّدنا زكريّا ، عليهما السلام ، ويعلّلون عن السبب بأن الأول نبيّ ابن نبيّ ، وليس كذلك الثاني . فقلتُ لهم : يا جُهّال . يلزم من ذلك أن يكون أفضل من سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم أيضاً ، والعياذ بالله من الجهل .

ولم يقل هذا مسلم ، ولا يحملهم على هذا الغُلُوّ إلا رغبتهم في سلب المزيّة عن حلب لؤماً وحسداً ، إذ الشائع عندهم أن أسلاف أهالي حلب اشتروا أسلافهم من التّمرلنك [ص 41] لمّا مرّ بهم من حلب ، بزوج نعل وأطلقوهم [1] . وهم للآن باقين أرقّاء لأهل حلب . فهذا سبب بُغضهم للحلبي .

---

(1) يا للصفاقة والرّقاعة وتمادي البُهتان . . هيك تخّنتها كتير شيخي ! فالواقع أن أهل دمشق وأهل حلب يستوون في الوقوع بسبي المغول ، وما فعله هؤلاء في كل من حلب ودمشق شيء مهول تقشعرّ منه الأبدان . راجع ما كتبه ابن تغري البردي الأتابكي في كتابه «النجوم الزاهرة» ، نقلاً عن أبيه الذي كان شاهد عيان للفظائع التي اقترفها المغول بحلب . وقد ضمّنّا بعض ذلك في بحثنا (ثلاثة فصول تاريخية من جهاد حلب في القرون الوسطى) ، ضمن كتابنا «دفاتر حلبية عتيقة» ، الذي ينتظر حظه للخروج إلى النور .

طُرفة نادرة

وقد سمعتُ أحدهم يتبجّح وينكّت على أسياده الموهومين ، فأردتُ أن أغيظه فقلتُ له :

اتّفق أن أحد التجّار الدمشقيين أتى إلى حلب ونزل ضيفاً على معامله الحلبي ، فبعد أن أقام عنده عدّة أيام توعّك مزاجه واختلّت صحّته . فأحضر له مضيفه طبيباً ، فأخذ يداويه عدّة أيام فام تنجع به الأدوية والعلاجات . فصرف هذا الطبيب وأحضر له طبيباً من الأطباء الماهرين ، فأخذ الطبيب يسأل [1] المريض عن سبب مرضه وعن أكله وعن شربه وعن جميع ما يقتضي السؤال عنه ، ثم قال لصاحب البيت :

أرسل أحداً من عندك بهذه الورقة إلى دكّاني فيحضر قنّينة بها ماء ، فيكون شرب المريض منه دائماً ، ولا يشرب ماءً قُراحاً أبداً .

فامتثل للأمر ، وصار المريض يتعاطى الدواء مدّة يومين فتحسّنت أحواله نوعاً ما ، ثم حضر الطبيب فرأى المريض [ص 42] يتقدّم إلى الصحّة فاستأنف الدواء .

وبعد يومين حضر الطبيب ، فرأى المريض نَقِهَ من مرضه تماماً ، فقال له : لازم الشّرب من هذا الماء ما دُمتَ موجوداً بهذا البلَد !

ثم سأل صاحب البيت من الطبيب عن مرض ضيفه ، وما كان سببه . فأجابه : إن ضيفك هذا دمشقي ، وهو متعوّد على شرب ماء الزّبل في بلده ، ولمّا فقده مرض كما ترى . فالدواء الذي أرسلته له لم يكن سوى ماء منقوع فيه زبل مغيّر لونه بشيء من العقاقير ، فكان له الدواء الشافي [2] .

---

(1) بالأصل : يسئل .

(2) من الواضح أن هذا الطبيب – إن كانت القصة حقيقية – قد تعاطى الطبّ في المسلخ ، أو كان ينبغي سحب إجازة الطبّ منه وتحويله للبيطرة ، أجدى وأجدر .

فسأله : وهل ماء حلب الصافي الطاهر لم يوافقه ؟ فأجابه : بل هو الذي أضرّه ، كما يضرّ ريح الورد بالجُعل !

فلمّا سمع مني [الدمشقي] هذا الكلام ، انتفخ من الغضب وأسرع في الهرب .

أولاد البابا حسن

ويوجد في دمشق عدد وافر من الأولاد الذين يسمّونهم هناك «أولاد بابا حَسَن» [1] ، ومن نظر في أحوال هؤلاء الأولاد وما هم عليه من فساد الأخلاق وقبح الصورة وقذارة الثياب ، [ص 43] ونومهم في اللّيل في الشوارع والطرقات متوسّدين الكلاب ، وكلامهم البذيء الذي تنبو عنه الأسماع ، يتضح له ويعرف كيف يكون تصرّفهم إذا صاروا من جملة رجال دمشق في المستقبل ، ويفهم أخلاق أسلافهم وآدابهم . فكأن هذا الداء قديم في دمشق ملازم لها .

ويظهر ذلك جليّاً من كلام ابن المنير الطرابلسي ، في قصيدته التتريّة المشهورة ، التي يقول من جملة أبياتها :

وسكنتُ جلَّقَ واقتديتُ بهم وإن كانوا بَقَرْ
وأقولُ مثل مقالهمْ بالفاشريّا قد فَشَرْ
مصطيجتي مكسورةٌ وفطيرتي فيها قصرْ
نفرٌ ترى برئيسهم طيشَ الظليم إذا نَفَرْ
وخفيفُهم مُستثقلٌ وصوابُ قولهمُ هَذَرْ
وطباعهُم كجبالهم جُبلتْ وقُدَّتْ من حَجَرْ

(1) التعبير من بقايا مخازي يزيد ورهطه ، الممعنة في البذاءة والافتراء على آل البيت . يُراد به الغمز من قناة سيدنا الحسن بن عليّ ، رضي الله عنهما ، لكن العظيم يبقى عظيماً .

هزل الدمشقيين [1]

[ص 45] وأغلب أهل دمشق ميّالون بالطبع إلى كثرة المزاح والهزل والتهريج ، حتى إذا وُجد شخص في حلب بهذه الأوصاف يُقال عنه «مُدَمْشَق» ، أي متخلّق بأخلاق أهل دمشق ، كما يقال للعزيمة الكاذبة «عزيمة شاميّة» [2] .

ولعامّتهم ولع زائد في تقليد أغنيائهم في ملابسهم ، ولو كان ما يلبسه عارية أو مستأجراً بالكرى [3] من السوق .

كلمة حق

ثم نقول : إنّا كتبنا ما كتبناه عن دمشق وشوائبها ، يشهد الله ورسله وملائكته ، ونحن نتأسّف عليها وعلى أهلها ، وكان بودّنا أنّا نراهم ومدينتهم أحسن مما ترجمنا عنهم ، لأنها مدينة إسلامية على كل حال وأقدم مدينة في العالم ، وهي مركز الخلافة الأموية ومصدر المحمل الشريف وعتبة الكعبة المنوّرة ، وأهلها جيراننا ويجمعنا [ص 46] وحدة الجنسيّة واللّغة والتّبعيّة .

فلا يسرّنا أننا نراها معكوسة الأحوال ، متلبّسة بأوصاف لا تليق بمدينة إسلاميّة مثلها ، مثل قهوة الدّفتردار بها [4] ، وقعود النساء هناك مقابلات جمهور الشبّان حال كونهم في حالة الشّرب والعربدة . وكذلك المرجة والصُّوفانيّة [5] ، وما أشبه ذلك .

---

(1) قبل هذه الفقرة قطعة مقدار صحيفة وثلاثة سطور . ضربنا عنها صفحاً لعدم مناسبتها .
(2) أما عندنا بالشام فالتندُّر على «العزيمة الصالحانية» .
(3) بالكراء : بالأجرة .
(4) كانت هذه القهوة في أواخر القرن التاسع عشر توجد - حسب ما هو واضح - في الحديقة المعروفة بجنينة الدّفتردار ، بشرقي حديقة المنشيّة ، فاخترقتها في عصرنا نزلة التجهيز . وكانت تقع قبالة بناء مكتب الحقوق (وزارة السياحة حالياً) .
(5) الصّوفانية من متنزهات دمشق الشهيرة بظاهر باب توما .

بعض محاسن دمشق

ولا بدّ أن نذكر محاسنها كما يقتضي الإنصاف ، فنقول :

يوجد في دمشق حمّامات من الطراز الأول ، ومنتزهات ورياض يندر وجودها في غيرها من مدن سوريا ، مثل الهامة وأنهارها المتدفّقة ، والرّبوة وأشجارها المورقة ، والصالحية المقدّسة وهوائها ، ودُمَّر البهيجة وعذوبة مائها ، والمرجة الفيحاء وكواكبها السيّارة ، وسكّة الحديد ومراكبها الطيّارة ، وباب توما وقهواته ، ومركز طريق الشّوصة وعجلاته .

وأعظم وأشرف الجميع جامع الأموي وأنواره ، ومرقد سيّدنا يحيى عليه السّلام ومهبط أسراره .

حريق الجامع الأموي

واحسرتاه . . [ص 47] ثاني يوم خروجنا من دمشق ، ظهر الحريق في جامع الأموي قضاءً . وفي مدّة ساعتين عادتْ تلك البناية القديمة العظيمة الضخمة التي كانت تفتخر بها أهالي دمشق على جميع مدن آسيا أثراً بعد عين ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله [1] .

---

(1) في ضحوة يوم السبت 4 ربيع الثاني سنة 1311 هـ (الموافق 15 تشرين الأول 1893 م) ، شبّت النار في الجامع الأموي ، وسببها كان من عامل كان يقوم بترميم سقف المشهد الغربي ، أعدّ جمراً لأركيلته المشؤومة ووضعه على رصاص السقف ، فذاب واحترق ما تحته . وسرعان ما شبّت النار في أبواب الجامع وسدّاته وأركانه ، وأتت على بيت الخطابة فأحرقت ما به من المآثر ، حتى شملت المصحف العثماني الكبير الذي كان أتي به من بُصرى . وفي خلال بضعة ساعات كانت أجزاء كاملة من هذا الأثر العظيم قد تحوّلت إلى رُكام ؛ فتنادى أهل الشام إلى إصلاحه ، وبذلوا الجهود والأموال الجزيلة ، حتى تم إصلاح جناحه الشرقي في عام 1317 هـ ، والغربي في عام 1320 هـ . وقيل بلغ مجموع ما أنفق على ترميم الجامع 60 ألف ليرة ذهبية .

عَودٌ على متنزهات دمشق

ولكن يسوؤنا أننا نقول إن أكثر هذه المنتزهات ليس لأهل الناموس فيها من نصيب ، لأنه يُرى بها ما لا يحسن ذكره أو ما لا يوافق فكره . فنسأل العظيم بجاه نبيّه الكريم أن يقيّض لدمشق جماعة مثل الشيخ سعيد أفندي الغبرة ، فيصلحوا أحوالها وينفوا منها ما يشينها ، آمين .

تفضيل المتنزهات الحلبية على الدمشقية

ثم نقول : إن جميع منتزهات دمشق مقيّدة لا مطلقة ، سوى حارة الصالحية [1] ، ومعنى المقيّدة أنه لا يمكنك أن تمدّ بصرك بها مئة ذراع حتى تصدّه الأشجار المحتبكة ، ومعلوم أنه كلّما امتد النظر ينشرح الناظر ، لا سيّما إذا تنوّعت المناظر . فلو قابلنا بين منتزهات دمشق ومنتزهات حلب ، التي منها جبل الجَوْشَن ومصاطب العشّاق وجبل النهر وجبل [ص 48] الشيخ فارس وجبّ الغزالات والأنصاري والشيخ مقصود وغيرهم ، لفضّلت الثانية على الأولى .

تصوّر ، هداك الله ، أنك جالس على ذروة جبل الجوشن مثلاً والأوان ربيع ، مُطلقاً عنان بصرك ، حيث يمتد مسافة خمسة أميال على الأقل من كل جهة ، على بساتين وسهول وجبال وقرى ومروج على ضفّتي النهر ، وأراض كأنه فُرش عليها قماش أحمر [2] ، مع منظر جميع المدينة وبهجتها ، مستنشقاً النسيم الذي كأنه منبعث من الجنان ، كيف يحصل لك الأُنس والسّرور والانشراح . وهناك اعمل موازنة بين المدينتين بالحقّ .

---

(1) لم يكن حي المهاجرين قد بُدئ بعمارته آنذاك ، بل عام 1900 ، بعد 7 أعوام من زيارته ، وآخر الحدّ الغربي لضاحية الصالحية كان الفواخير ، وخلفه بساتين النّيرب أولها بهران .
(2) بالأصل : قماشاً أحمراً . فاتت مؤلفنا قواعد المبني للمجهول والممنوع من الصّرف .

وأعظم من جميع ما ذُكر ، صعودك برج القلعة الشهباء ذات الجناحين ، فيخال لك أنك تطوف بأكناف السّحاب المخيّم ، بخلاف قلعة دمشق التي هي عبارة عن خان من خانات حلب ، فإنك لا ترى بها غير رؤوس جدرانها ورقعة السماء التي تخيّمها ، لأن موقعها أوطا من بقيّة المدينة . ثم لو وضعتها مع قشَل دمشق الخمس [ص 49] ضمن قشلة [1] حلب (الشيخ يبرق) لوسعتهم ، فضلاً عن إتقان بنائها الذي هو من حجر وحديد ، وكسافة بناء أولئك الذي هو من الطوب والقرميد .

التجارة والصناعة

وأما من خصوص التجارة بين المدينتين ، فدمشق ترسل إلى حلب القمردّين وصايات جتارة وشيئاً من المدرّبيّات [2] والكمار ، وحلب ترسل إلى دمشق الخيل والغنم والسَّمن والفستق والقطن والزيت والصابون والقصب وأواني النحاس والأغباني والبيلون والسّمك .

وأما من خصوص المصنوعات ، فإن دمشق تفوق حلب بشغل الجتارة والمدربيّات ، والحفر في النحاس والتدهين وترصيع الخشب بالصّدف ، وأدوات الحديد والفولاذ والجلود . وحلب تفوق دمشق بسحب شريط القصب والصياغة وشغل المسيغ وشغل الأغباني وشغل النحاس من جميع الأواني ، وصنعة البناء وطبخ الصابون واستخراج الزيت ، وشغل المراكيب وعمل القندرات وعمل الحلويات من جميع أنواعها ، وأشياء أُخر لا تستحق الذكر ، مثل المكانس والمنافخ وشربات الماء .

* * * * *

(1) سبق أن ذكرنا أن القشلة كلمة تركية : kışla ، ومعناها : الثكنة العسكرية .
(2) المدربيات : يعني مضرّبات الخزّ المطرّزة .

سبب شهرة دمشق

[ص 50] فإن قيل : إذا كانت دمشق كما وصفتَ ، فما سبب شهرتها في جميع الدنيا من القديم ؟

أقول : شهرتها فباعتبار الإقيم الشامي ، وحدّه من عريش مصر إلى الفُرات ، فإنه عُشّ الأنبياء كما هو مذكور في الكتب السماوية ، أعني التوراة والزّبور والإنجيل والفُرقان . ولأن أصحاب هذه الكتب انتشروا في جميع أقطار الأرض ، فبمداومة تلاوتها يتردّد ذكرها دائماً بينهم ، فلا عجب إذا شاعت شهرتها من هذا الخصوص .

وأما شهرة المدينة وحدها ، فكونها تشتمل على أمر ديني ، وبيان ذلك أن هذه المدينة واقعة برزخاً بين العمران ومفاوز الحجاز ، وكونها مركزاً للمحمل الشّريف ، ومنها تبتدىء مسيرة سير الحج ، ومنها يتعيّن وزير وقاض وطبيب وعسكر لمحافظة الرّكب ، ومنها يخرج ركب الجردة إعانةً لركب الحج في رجوعه . فمن أجل جميع ذلك يكثر تردّد ذكرها في جميع العالم الإسلامي ، كأن يقولوا : «في آخر شهر شوّال يخرج الحج [ص 51] من مدينة دمشق ، قاصداً الأراضي المقدّسة الحجازيّة» . . «وفي أواخر شهر محرّم الحرام يدخل الرّكب إلى مدينة دمشق ، مقبلاً من الأراضي الحجازيّة» . . «وفي يوم كذا يخرج أمين الصرّة من دمشق قاصداً دار الخلافة العليّة» . . وما أشبه ذلك من الكلام المتعلّق بالحجّ .

وهذا الكلام يجري في جميع أشهر الحجّ ، حتى إذا رجع الحاج إلى بلاده وأراد أن يحكي لأهله عن سفرته ، فيبتديها من دمشق ، لأنه لم يجد صعوبة السّفر إلا من بعدها .

ومما يكسبها شهرة أيضاً ، كونها مركزاً لمعسكر الأوردى [1] الخامس السلطاني ، ويتبعها في نظام العسكرية أربع ولايات ، أعني حلب وآدنه وبيروت

---

(1) ذكرنا مسبقاً أن الكلمة تركية : ordu ، وتعني : الجيش .

والقدس والدير . فمنها تُرسل الأوامر المختصّة بالعسكرية إلى هذه الولايات ، فترى الناس في تلك البلاد لَهجين بذكر دمشق ، فيقولون مثلاً : «أتت الأوامر من المشير في دمشق بأن تؤخذ القُرعة أو بجمع الرّديف أو تحوي الطابور الفلاني إلى فلان بلد ، أو بإطلاق سبيل الأنفار الذين أكملوا مدّة [ص 52] خدمتهم العسكريّة» ، إلى غير ذلك من الأمور التي يقتضي أن تُذكر بها دمشق كثيراً .

ولا يخفى ما تعطيه جميع هذه الأحوال من الشّهرة ، فلو كانت إدلب حائزة هذه الصّفات المارّ ذكرها ، لاكتسبت تلك الشّهرة على قلّة مائها . وأنتَ ترى أن مدينة القُدس أكثر شهرة في جميع الدنيا من مدينة دمشق مع قلّة مائها ، والله أعلم .

ختام

وأرجو ممّن نظر في هذه المقولة أن يغضّ الطَّرْف عمّا وقع فيها من الخطأ ، ويسمح لي عن اللَّحَن والرّكاكة ، إذ لا قُدرة لي أن أنمّق الكلام مُعرّباً ومحسّناً بأنواع البديع والبلاغة ، والمُنصف من يقبل العُذر ويغفر الزلاّت .

وصلّى الله على من لا ينطق عن الهوى ، وآله وصحبه وأهل بيته ، وسلّم تسليماً كثيراً ، آمين .

تمّت في 15 ر سنة 1311

تمّت على يد كاتبه . .
الحاج خُرشد
المسائل

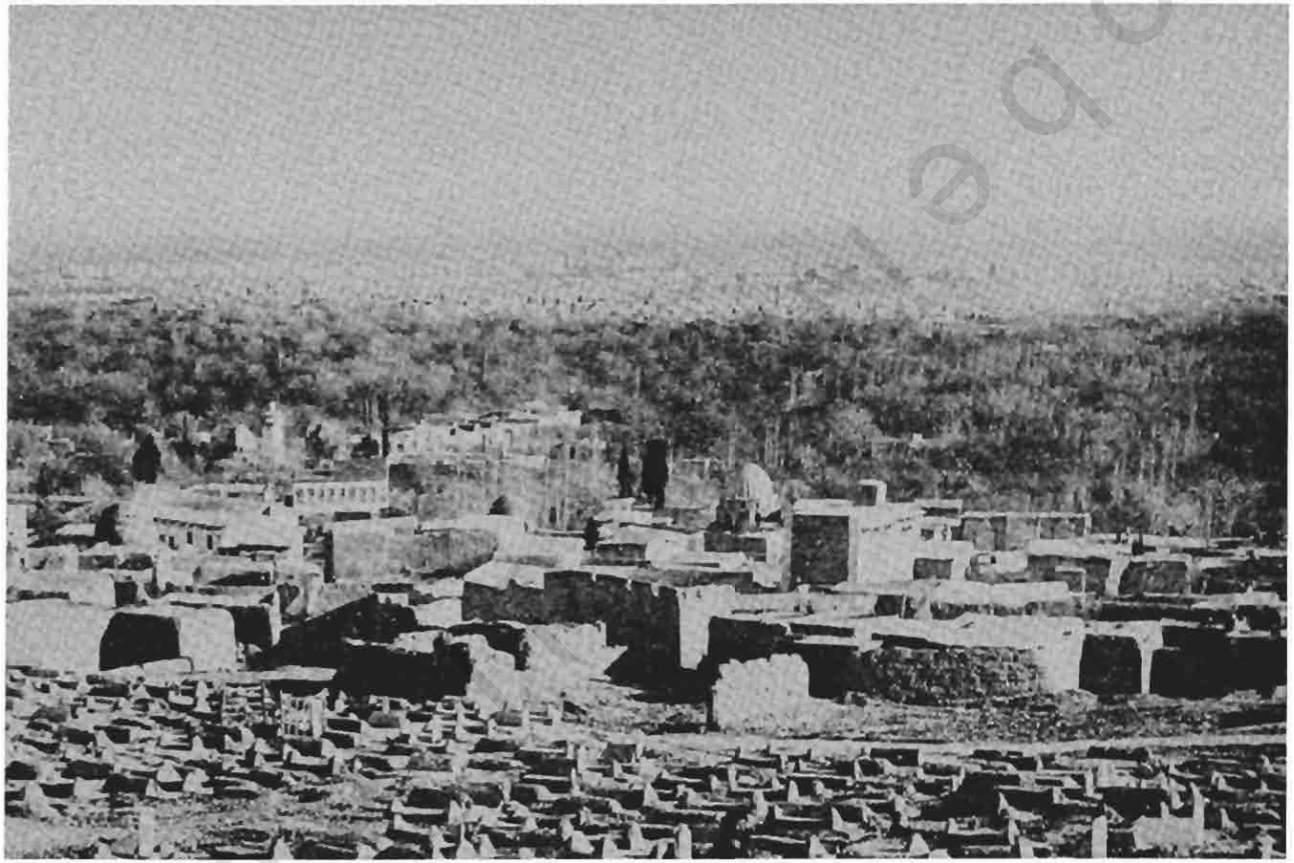

دمشق من أعلى غربي الصالحية ، صورة فوتوغرافية من أواخر القرن التاسع عشر

مشهد عام لدمشق ، صورة لبونفيس Bonfils من أواخر القرن التاسع عشر

سيران دمشقي في أحد بساتين الصالحية ، صورة فوتوغرافية من عشرينيات القرن العشرين